

جبران خليل جبران

الاهنحة الثلاثة

مكتبة الثقافة

0201881



Bibliotheca Alexandrina

جبران خليل جبران

الأمم المتحدة الثالثة

الملتبة والثقافية
بيروت - لبنان

الى التي تحقق الى الشمس
بأجفان جامدة ، وتقبض
على النار بأصابع غير
مرتعشة ، وتسمع نغمة
الروح « الكلي » من وراء
ضجيج العميان وصراخهم
الى M.E.H. أرفع
هذا الكتاب .

جبران

فهرست

<u>صفحة</u>	<u>الموضوع</u>
٥	كلمة الناشر
٧	توطئة
١١	الكآبة الخرساء
١٥	يد القضاء
٢٠	في باب الهيكل
٢٥	الشعلة البيضاء
٢٩	العاصفة
٤٣	بحيرة النار
٦١	أمام عرش الموت
٧٧	بين عشتروت والمسيح
٨٤	التضحية
٩٥	المنقذ

توطئة



كنت في الثامنة عشرة عندما فتح الحب عيني بأشعته
السحرية ، ولمس نفسي لأول مرة بأصابعه النارية . وكانت
سلمى كرامه المرأة الأولى التي أيقظت روحي بمحاسنها .
ومشت أمامي إلى جنة العواطف العلوية ، حيث تمر الأيام
كالأحلام وتنقضي الليالي كالأهراس .

سلمى كرامه هي علمتني عبادة الجمال يجهاها ، وأرتقي
خفايا الحب بانعطافها ، وهي التي أنشدت على مسمعي ' أول
بيت من قصيدة الحياة الممنوية .

أي فتى لا يذكر الصبية الأولى التي أبدلت غفلة شبيبته
ببقطة هائلة بلطفها ، جارحة بعذوبتها ، فتاكة بمحلاوتها ؟ من
منا لا يذوب حنيناً إلى تلك الساعة الغريبة التي إذا اتبته
فيها فجأة رأى كليته قد انقلبت وتحولت ، وأعماقه قد
اتسعت وانبسطت وتبطننت بانفعالات لذيدة بكل ما فيها من
مرارة الكتمان ، مستحبة بكل ما يكتنفها من الدموع والشوق
والسهاد ؟

لكل فتي سلمى تظهر على حين غفلة في ربيع حياته وتجعل
لأنفرادَه معنى شعرياً وتبدل وحشة أيامه بالأنس ، وسكينة
لياليه بالأنغام .

كنت حائراً بين تأثيرات الطبيعة وموجيات الكتب
والأسفار عندما سمعت الحب يهمس بشفتي سلمى في آذان
نفسي ، وكانت حياتي خالية مقفرة باردة شبيهة بسبات آدم
في الفردوس عندما رأيت سلمى منتصبة أمامي كعمود النور .
فسلمى كرامه هي حواء هذا القلب المملوء بالأسرار والعجائب ،
وهي التي افهمته كنه هذا الوجود وأوقفته كالمرآة أمام
هذه الأشباح . حواء الأولى اخرجت آدم من الفردوس
بإرادتها وانقياده ، أما سلمى كرامه فأدخلتني الى جنة الحب
والطهر بجلاوتها واستعدادي ، ولكن ما أصاب الإنسان
الأول قد أصابني ، والسيف الناري الذي طرده من الفردوس
هو كالسيف الذي أخافني بلعان حده وأبعدني كرهاً عن
جنة المحبة قبل أن أخالف وصية وقبل أن أذوق طعم ثمار
الخير والشر .

واليوم ، وقد مرت الأعوام المظلمة طامسة بأقدامها
رسوم تلك الأيام ، لم يبق لي من ذلك الحلم الجميل سوى
تذكريات موجعة ترفرف كالأجنحة غير المنظورة حول
رأسي مثيرة تنهدات الأسى في أعماق صدري مستقطزة
دموع اليأس والأسف من أجفاني .. وسلمى - سلمى

الجميلة العذبة قد ذهبت إلى ما وراء الشفق الأزرق ولم يبق من آثارها في هذا العالم سوى غصات أليمة في قلبي وقبر رخامي منتصب في ظلال أشجار السرو . فذلك القبر وهذا القلب هما كل ما بقي ليحدث الوجود عن سلمى كرامه ، غير أن السكينة التي تخفر القبور لا تفشي ذلك السر المصون الذي أخفته الآلهة في ظلمات التابوت ، والأغصان التي امتصت عناصر الجسد لا تبيح بحفيفها مكنونات الحفرة .

أما غصات هذا القلب وأوجاعه فهي التي تتكلم وهي التي تنسكب الآن مع قطرات الحبر السوداء معلنة للنور أشباح تلك المأساة التي مثلها الحب والجمال والموت .

فيا أصدقاء شيبتي المنتشرين في بيروت ، إذا مررتم بتلك المقبرة القريبة من غابة الصنوبر ادخلوها صامتين وسيروا ببطء كيلا تزعج أقدامكم رفسات الراقدين تحت أطباق الثرى ، وقفوا متهيئين بجانب قبر سلمى وحيوا عني القراب الذي ضم جثمانها ثم اذكروني بتنهدة قائلين في نفوسكم: هنا دفنت آمال ذلك الفتى الذي نفثه صروف الدهر الى ما وراء البحار ، وههنا توارت أمانيه وازوت أفراسه وغارت دموعه واضمحلت ابتساماته ، وبين هذه المدافن الخرساء تنمو كآبته مع أشجار السرو والصفصاف ، وفوق هذا القبر ترفرف روحه كل ليلة مستأنسة بالذكرى ، مرددة مع أشباح الوحشة نوبات الحزن والأسى ، نائحة مع العصور على ضيئة كانت

بالأمس نغمة شجيرة بين شفتي الحياة فأصبحت اليوم سرّاً
صامتاً في صدر الأرض .

استعطفكم يا رفاق الصبا بالنساء اللواتي احببتن " فلوبكم ان
تضعوا أكاليل الأزهار على قبر المرأة التي أحبها قلبي - قرب
زهرة تلقونها على ضريح ملسي تكون كقطرة الندى التي
تسكبها أجفان الصباح بين أوراق الوردة الذابلة .



الكتابة الخرساء



أنتم أيها الناس تذكرون فجر الشبيبة فرحين باسترجاع
رسومه متأسفين على انقضائه ، أما أنا فأذكره مثلما يذكر
الحر المعتق جدران سجنه وثقل قيوده . أنتم تدعون تلك
السنين التي تجيء بين الطفولة والشباب عهداً ذهبياً يهزأ بمتاعب
الدهر وهو أجسه ويطير مرفرفاً فوق رؤوس المشاغل والمهموم
مثلما تجتاز النحلة فوق المستنقعات الخبيثة سائرة نحو البساتين
المزهرة ؛ أما أنا فلا أستطيع أن أدعو سني الصبا سوى
عهد آلام خفية خرساء كانت تقطن قلبي وتثور كالعواصف
في جوانبه وتتكاثر نامية بنموه ، ولم تجد منفذا تنصرف منه
إلى عالم المعرفة حتى دخل إليه الحب وفتح أبوابه وأثار
زواياه . فالحب قد أعتق لساني فتكلمت ومزق أجفاني
فبكيت وفتح حنجرتي فتنهدت وشكوت .

أنتم أيها الناس تذكرون الحقول والبساتين والساحات
وجوانب الشوارع التي رأت ألعابكم وممعت همس طهركم ،
وأنا أيضاً أذكر تلك البقعة الجميلة من شمال لبنان ، فما

أغضت عيني عن هذا المحيط إلا رأيت تلك الأودية المملوءة
سحراً وهيباً، وتلك الجبال المتعالية بالمجد والعظمة نحو العلاء،
ولا سمعت أذني عن ضجة هذا الاجتماع إلا سمعت خريير تلك
السواقي وحفيف تلك الفصون . ولكن هذه المحاسن التي
أذكرها الآن وأتشوق إليها تشوق الرضيع إلى ذراعي أمه هي
هي التي كانت تعذب روحي المسجونة في ظلمة الحداثة
مثلما يتعذب البازي بين قضبان قفصه عندما يرى أمراًب
البزاة تسبح حرة في الخلاء الواسع - وهي التي كانت تملأ
صدري بأوجاع التأمل ومرارة التفكير وتنسج بأصابع الحيرة
والالتباس نقاباً من اليأس والقنوط حول قلبي - فلم أذهب
إلى البرية إلا عدت منها كئيباً جاهلاً أسباب الكتابة ، ولا
نظرت مساء إلى الغيوم المتلونة بأشعة الشمس إلا شعرت
بانقباض متلف ينمو لجهلي معاني الانقباض، ولا سمعت تغريدة
الشحرور أو أغنية الغدير إلا وقفت حزينا لجهلي موحيات
الحزن .

يقولون ان الغباوة مهد الخلو والخلو مرقد الراحة - وقد
يكون ذلك صحيحاً عند الذين يولدون أمواتاً ويعيشون
كالاجساد الهامدة الباردة فوق التراب ، ولكن إذا كانت
الغباوة العمياء قاطنة في جوار العواطف المستيقظة تكون
الغباوة أقسى من الهاوية وأمر من الموت . والصبي الحساس الذي
يشعر كثيراً ويعرف قليلاً هو أتمس الخلوقات أمام وجه
الشمس لأن نفسه تظل واقفة بين قوتين هائلتين متباينتين :

قوة خفيفة تجلّق به في السحاب وترى محاسن الكائنات من وراء ضباب الأحلام ، وقوة ظاهرة تقيّده بالأرض وتغمر بصيرته بالغبار وتتركه ضائعاً خائفاً في ظلمة حالكة .

للكتابة ايد حريرية الملاصق قوية الأعصاب تقبض على القلوب وتؤلّمها بالوحدة ، فالوحدة حليفة الكتابة كما أنها أليفة كل حركة روحية . ونفس الصبي المنتصب أمام عوامل الوحدة وتأثيرات الكتابة شبيهة بالزنبقة البيضاء عند خروجها من الكمام ترتعش أمام النسيم وتفتح قلبها لأشعة الفجر وتضم أوراقها بمرور أخيلة المساء ، فان لم يكن للصبي من الملامي ما يشغل فكرته ومن الرفاق من يشاركه في الميول كانت الحياة امامه كحبس ضيق لا يرى في جوانبه غير انوار المناكب ولا يسمع من زواياه سوى دبيب الحشرات .

أما تلك الكتابة التي اتبعت أيام حدائق فلم تكن ناتجة عن حاجتي الى الملامي لأنها كانت متوفرة لدي ، ولا عن افتقاري الى الرفاق لأنني كنت أجدهم أينما ذهبت ، بل هي من اعراض علة طبيعية في النفس كانت تجذب اليّ الوحدة والانفراد ، وتميت في روحي الميول الى الملامي والالاماب ، وتخلع عن كتفي أجنحة الصبا ، وتجعلني أمام الوجود كحوض مياه بين الجبال يعكس بهدوئه المحزن رسوم الأشباح وألوان الغيوم وخطوط الأغصان ، ولكنه لا يحيد مراً يسير فيه جدولاً مترنماً الى البحر .

مكذا كانت حياتي قبل أن ابلغ الثامنة عشرة، فتلک السنة
 مي من ماضي بمقام القمة من الجبل لانها أوقفتني متأملاً تجاه
 هذا العالم وأرتني سبل البشر ومروج ميولهم وعقبات متاعبهم
 وكهوف شرائعهم وتقاليدهم .

في تلك السنة ولدت ثانية ، والمرء ان لم تحبل به الکآبة
 ويتمخض به اليأس وتضعه المحبة في مهد الاحلام تظل حياته
 كصفحة خالية بيضاء في كتاب الكيان .

في تلك السنة شاهدت ملائكة السماء تنظر اليّ من وراء
 أجفان امرأة جميلة ، وفيها رأيت أبالسة الجحيم يضجون
 ويتراکضون في صدر رجل مجرم - ومن لا يشاهد الملائكة
 والشیاطين في محاسن الحياة ومكروهااتها يظل قلبه بميذاً عن
 المعرفة ونفسه فارغة من المواطنف .



يد القضاء



كنت في بيروت في ربيع تلك السنة المملوءة بالغرائب ،
وكان نيسان قد أنبت الأزهار والأعشاب فظهرت في بساتين
المدينة كأنها اسرار تعلنها الأرض للسماء . وكانت أشجار اللوز
والتفاح قد اكست بحلل بيضاء معطرة فبانت بين المنازل
كأنها حوريات بلباس ناصعة قد بعثت بهن الطبيعة عرائس
وزوجات لابناء الشمر والخيال .

الربيع جميل في كل مكان ولكنه اكثر من جميل في سوريا ..
الربيع روح إله غير معروف تطوف في الأرض بسرعة وعندما
تبلغ سوريا تسير ببطم متلففة الى الوراء مستأنسة بأرواح
الملوك والأنبياء الحائمة في الفضاء ، مترنمة مع جداول اليهودية
بأناشيد سليمان الخالدة ، مرددة مع أرز لبنان تذكارات المجد .
القديم .

وبيروت في الربيع أجمل منها في ما بقي من الفصول لانها
تخلو فيه من أوحال الشتاء وغبار الصيف وتصبح بين أمطار
الأول وحرارة الثاني كصية حسناء قد اغتسلت بياه الغدير
ثم جلست على ضفته تحفف جسدها بأشعة الشمس .

ففي يوم من تلك الأيام المفعمة بأنفاس نيسان المسكرة
وابتساماته الهيبية ، ذهبت لزيارة صديق يسكن بيتاً بعيداً
عن ضجة الاجتماع، وبينما نحن نتحدث راسمين بالكلام خطوط
آمالنا وأمانينا دخل علينا شيخ جليل في الخامسة والستين من
عمره تدل ملابسه البسيطة وملاحه المتجمعة على الهيبية والوقار
فوقفت احتراماً ، وقبيل ان اصافحه مسلماً تقدم صديقي
وقال : حضرتته فارس أفندي كرامه . ثم لفظ اسمي مشفوعاً
بكلمة ثناء ، فحذق إليّ الشيخ هنية لامساً باطراف اصابه
جبهته العالية المكحلة بشعر أبيض كالثلج كأنه يريد أن يسترجع
إلى ذاكرته صورة شيء قديم مفقود ثم ابتسم ابتسامة سرور
وانعطاف واقترب مني قائلاً : انت ابن صديق حبيب قديم
صرفت ربيع العمر برفقتيه ، فما أعظم فرحي بمرآك ولكم أنا
مشتاق إلى لقاء أبيك بشخصك !

فتأثرت لكلامه وشعرت يجاذب خفي يدينني اليه بطمانينة
مثلما تقود الغريزة العصفور إلى وكره قبيل مجيء العاصفة .
ولما جلسنا أخذ يقص علينا أحاديث صداقته لوالدي متذكراً
أيام الشباب التي صرفها بقربه تالياً على مسامعنا اخبار أعوام
قضت فكفنها الدهر بقلبه وقبرها في صدره ... ان الشيخ
يرجعون بالفكر إلى أيام شبابهم رجوع الغريب المشتاق إلى
مسقط رأسه ، ويميلون إلى سرد حكايات الصبا ميل الشاعر
على تنعيم أبلغ قصائده ، فهم يعيشون بالروح في زوايا

الماضي الغابر لان الحاضر يمر بهم ولا يلتفت ، والمستقبل
يميدو لأعينهم متشجاً بضباب الزوال وظلمة القبر .

وبعد ساعة مرت بين الأحاديث والتذكريات^١ مرور ظل
الأغصان على الأعشاب ، وقف فارس كرامه للانصراف ، ولما
دفوت منه مودعاً أخذ يدي بيمينه ووضع شماله على كتفي
قائلاً : أنا لم أرَ والدك منذ عشرين سنة ولكنني أرجو ان
أستحيض عن بعماده الطويل بزياراتك الكثيرة .

فانحنيت شاكراً واعدأ بتتيم ما يجب على الابن نحو
صديق أبيه .

ولما خرج فارس كرامه استزدت صاحبي من أخباره فقال
بلهجة يساورها التحدر : لا اعرف رجلاً سواه في بيروت
قد جعلته الثروة فاضلاً والفضيلة مثرياً . وهو واحد من القليلين
الذين يميئون هذا العالم وينادونه قبل أن يلامسوا بالأذى
نفس مخلوق ، ولكن هؤلاء الرجال يكونون غالباً نساء
مظلومين ، لأنهم يحلون سبل الاحتيال التي تنقذهم من مكر
الناس وخبثهم ... وفارس كرامه ابنة وحيدة تسكن معه
منزلاً فخماً في ضاحية المدينة ، وهي تشابهه بالأخلاق وليس
بين النساء من تماثلها رقة وجمالاً ، وهي ايضاً ستكون
ناعسة لأن ثروة والدها الطائلة توقفها الآن على شفير هاروة
مظلمة مخيفة .

لفظ صديقي الكلمات الأخيرة وظهرت على بحياه لوائح
الغم والأسف ثم زاد قائلا : فارس كرامه شيخ شريف القلب
كريم الصفات ولكنه ضعيف الارادة يقوده رياه الناس كالأعمى
وتوقفه مطامعهم كالأخرس . أما ابنته فتخضع ممتثلة لارادته
الواهنة على رغم كل مافي روحها الكبيرة من القوى والمواهب .
وهذا هو السر الكامن وراء حياة الوالد وابنته . وقد فهم
هذا السر رجل يأثلف في شخصه الطمع بالرياء والخبث
بالدهاء ، وهذا الرجل هو مطران تسير قبائحه بظل الانجيل
فتظهر للناس كالفضائل . هو رئيس دين في بلاد الأديان والمذاهب
تخافه الأرواح والأجساد وتخبر لديه ساجدة مثلما تمنحني رقاب
الانعام أمام الجزار . ولهذا المطران ابن أخ تتصارع في نفسه
عناصر المفاسد والمكاره مثلما تتقلب المقارب والأفاعي على
جوانب الكهوف والمستنقعات . وليس بعيداً اليوم الذي
ينفصب فيه المطران بلباسه الحبرية جاعلاً ابن أخيه عن يمينه
وابنة فارس كرامه عن شماله رافعاً بيده الأئيمة اكليل الزواج
فوق رأسها مقيداً بسلاسل التكهن والتعزيم جسداً طاهراً
يحييه منتنة ، جامعاً في قبضة الشريعة الفاسدة روحاً سماوية
بذات ترابية ، واضعاً قلب النهار في صدر الليل . هذا كل ما
أستطيع ان اقله لك الآن عن فارس كرامه وابنته فلا تسلفي
اكثر من ذلك لأن ذكر المصيبة يدينها مثلما يقرب الموت
الخوف من الموت .

وحول صديقي وجهه ونظر من النافذة الى الفضاء كأنه يبحث عن أمرار الأيام والليالي بين دقائق الأثير .

فقممت إذ ذاك من مكاني ، ولما اخذت يده مودعاً قلت له :
غداً أزور فارس كرامه قياماً بوعدى له واحتراماً للتذكريات
التي ابقته صداقته لوالدي .

فبهت بي الشاب دقيقة وقد تغيرت ملامحه كأن كلماني
القليلة البسيطة قد أوحى اليه فكراً جديداً هائلاً ، ثم نظر
في عيني نظرة طويلة غريبة - نظرة محبة وشفقة وخوف -
نظرة نبي يرى في أعماق الارواح ما لا تعرفه الارواح ، ثم
ارتعشت شفاته قليلاً ولكنه لم يقل شيئاً ، فتركته وسرت
نحو الباب بأفكار متضعضعة ، وقبيل ان يلتفت الى الورا
رأيت عينيه ما زالتا تتبعانني بتلك النظرة الغريبة - تلك
النظرة التي لم أفهم معانيها حتى عثقت نفسي من عالم المقاييس
والكمية وطارت إلى مسارح الملا الأعلى حيث تتفاهم القلوب
بالنظرات وتنمو الارواح بالتفاهم .

في باب الهيكل



وبعد أيام وقد مللت الوحدة وتعبت أجفاني من النظر
الى أوجه الكتب العابسة علوت مركبة طالباً منزل فارس
كرامه ، حتى إذا ما بلغت بي غابة الصنوبر حيث يذهب
القوم للتنزه حول السائق وجهة فرسيه عن الطريق العمومية
فسار خبياً على ممر تظله اشجار الصفصاف وتتايل على جانبيه
الأعشاب والدوالي المتعرشة وأزاهر نيسان المتبسمة بثغور
حرام كالياقوت وزرقاء كالزمرّد وصفراء كالذهب .

وبعد دقيقة وقفت المركبة أمام منزل منفرد تحيط به
حديقة مترامية الأطراف تتعانق في جوانبها الأغصان وتعطر
فضاءها رائحة الورد والفل والياسمين .

ما سرت بضع خطوات في تلك الحديقة حتى ظهر فارس
كرامه في باب المنزل خارجاً للقائي كأن هدير المركبة في تلك
البقعة المنفردة قد أعلن له قدومي ، فهش متأهلاً وقادني
مرحباً الى داخل الدار ، ونظير والد مشتاق اجلسني بقربه
يحدثني مستفسراً عن ماضيّ مستطلعاً مقاصدي في مستقبل ،
فكنت أجيبه بتلك اللهجة المفعمة بنعمة الأحلام والأمان

التي يترنم بها الفتیان قبل أن تقذفهم أمواج الخيال إلى شاطئه
العمل حيث الجهاد والنزاع ... للشبيبة أجنحة ذات ريش من
الشعر وأعصاب من الأوهام ترتفع بالفتیان إلى ما وراء
الغيوم فيرون الكیارات مغموراً بأشعة متلونة بألوان قوس
قزح ، ويسمعون الحياة مرتلة أغاني المجد والعظمة ، ولكن
تلك الأجنحة الشعرية لا تلبث أن تمزقها عواصف الاختبار
فيهبطون إلى عالم الحقيقة ، وعالم الحقيقة مرآة غريبة يرى
فيها المرء نفسه مصغرة مشوهة .

في تلك الدقيقة ظهرت من بين ستائر الباب المخملية صبية
ترتدي أثواباً من الحرير الأبيض الناعم ومشت نحوي ببطم ،
فوقفت ووقف الشيخ قائلاً : هذه ابنتي سلمى . وبعد أن
لفظ اسمي شفعه بقوله : ان ذاك الصديق القديم الذي حجبتہ
عني الأيام قد عادت فأبانتہ لي بشيخص ابنه ، فأنا أراه الآن
ولا أراه . فتقدمت الصبية إلى وحدقت إلى عيني كأنها تريد
أن تستنطقها عن حقيقة امري وتعلم منها أسباب مجيئي إلى
ذلك المكان ، ثم اخذت يدي بيد تضارع زنبقة الحقل بياضاً
ونعومة ، فأحسست عند ملامسة الأكف بعاطفة غريبة
جديدة أشبه شيء بالفكر الشعري عند ابتداء تكوينه في
مخيلة الكاتب .

جلسنا جميعاً ساكنين كأن سلمى قد ادخلت معها إلى تلك
الغرفة روحاً علوية توغز الصمت والتسهب ، وكأنها شعرت
بذلك فالتفتت نحوي وقالت مبتسمة : كثيراً ما حدثني

والذي عن ابيك معيداً على مسمي حكايات شبابه ، فان كان والدك قد اسمعك تلك الوقائع فلا يكون هذا اللقاء هو الأول بيننا .

فسر الشيخ بكلمات ابنته وانبسطت ملاحه ثم قال : ان سلمى روحية الميول والمذاهب ، فهي ترى جميع الأشياء ساجدة في عالم النفس .

وهكذا عاد فارس كرامه الى محادثتي باهتمام كلي ورقة متناهية كأنه وجد في سرّاً سحرياً يرجعه على اجنحة الذكرى الى ربيع ايامه الغابرة .

كان ذلك الشيخ يحدق اليّ مسترجعاً اشباح شبابه وانا انامله حالاً بمستقبلي ، كان ينظر اليّ مثلما تحم اغصان الشجرة العالية المملوءة بمآتي الفصول فوق غرسة صغيرة مفعمة بعزم هاجع وحياة عيماء. شجرة مسنة راسخة الأعراق قد اختبرت صيف العمر وشتاءه ووقفت امام عواصف الدهر والنوائه ، وغرسة ضعيفة لينه لم تر غير الربيع ولم ترتعش إلا بمرور نسيم الفجر .

اما سلمى فكانت ساكنة تنتظر الي تارة وطوراً إلى ابيا كأنها تقرأ في وجهينا اول فصل من رواية الحياة وآخر فصل منها .

قضى ذلك النهار متنهداً انقاسه بين تلك الحداثق والبساتين وغابت الشمس تاركة خيال قبلة صفراء على قم لبنان المتعالية قبالة ذلك المنزل وفارس كرامه يتلو عليّ أخباره فيذهلني وانا اترنم امامه بأغاني شبيبتي فاطربه ، وسلمى

جالسة بقرب تلك النافذة تنظر إلينا بعينها الحزينة ولا تتحرك وتسمع أحاديثنا ولا تتكلم كأنها عرفت ان للجمال لغة سماوية تترفع عن الاصوات والمقاطع التي تحدثها الشفاه والألسنة ، لغة خالدة تضم اليها جميع انغام البشر وتجعلها شعوراً صامتاً مثلما تجتذب البحيرة المادئة أغاني السواقي الى أعماقها وتجعلها سكوتاً أبدياً . ان الجمال سر تفهمه أرواحنا وتفرح به وتنمو بتأثيراته ، أما أفكارنا فتقف أمامه ختارة محاولة تحديده وتجسيده بالألفاظ ولكنها لا تستطيع . هو سيال خاف عن العين يتموج بين عواطف الناظر وحقيقة المنظور . الجمال الحقيقي هو أشعة تنبعث من قدس أقداس النفس وتثير خارج الجسد مثلما تنبثق الحياة من أعماق النواة وتكسب الزهرة لوناً وغطراً - هو تفاهم كلي بين الرجل والمرأة يتم بلحظة ، وبلحظة يولد ذلك الميل المترف عن جميع الميول - ذلك الانعطاف الروحي الذي ندعوه حباً ، فهل فهمت روحي روح سلمى في عشية ذلك النهار فجعلني التفاهم أراها أجمل امرأة امام الشمس ام هي سكرة الشيبية التي تجعلنا نتخيل رسوماً واشباحاً لا حقيقة لها؟ هل اعمتني الفتوة فتوهمت الاشعة في عيني سلمى والحلاوة في ثغرها والركة في قدها ام هي تلك الأشعة وتلك الحلاوة وتلك الرقة التي فتحت عيني لتريني أفراح الحب وأحزانه ؟ لا أدري ولكنني أعلم انني شعرت بعاطفة لم أشعر بها قبل تلك الساعة . عاطفة جديدة تمايلت حول قلبي يهدوه يشابه رفرقة الروح على وجه الغمر قبل ان تبتدىء الدهور . ومن تلك العاطفة قد تولدت سعادي

وتعاسني مثلما ظهرت وتناسخت الكائنات بإرادة ذلك الروح .
هكذا انقضت تلك الساعة التي جمعتني بسلمى لأول مرة ،
وهكذا شامت السماء واعتقتني على حين غفلة من عبودية
الحبرة والحدائث لتسيرني حرّاً في موكب المحبة ، فالمحبة هي
الحرية الوحيدة في هذا العالم لأنها ترفع النفس إلى مقام سام
لا تبلقه شرائع البشر وتقاليدهم ولا تسوده نواويس الطبيعة
وأحكامها .

ولما وقفت للانصراف اقترب مني فارس كرامه وقال
بصوت تعانقه رنة الاخلاص : الآن وقد عرفت الطريق الى
هذا المنزل يجب أن تأتي اليه شاعراً بالثقة التي تفودك إلى بيت
أبيك وأن تحسبني وسلي كوالد وأخت لك - اليس كذلك
يا سلمى ؟

فحننت سلمى رأسها إيجاباً ثم نظرت إليّ نظرة غريب
ضائع وجد رقيقاً يعرفه .

ان تلك الكلمات التي قالها لي فارس كرامه هي النعمة
الأولى التي أوقفتني بجانب ابنته أمام عرش المحبة هي استهلال
الأغنية السماوية التي انتهت بالنسب والثناء . هي القوة التي
شجعت روحينا فاقتربنا من النور والنار . هي الإناء الذي
شربنا فيه الكوثر والعلقم .

وخرجت فشيوعي الشيخ الى اطراف الحديقة ، فودعتها
وقلبي يخفق في داخلي مثلما ترتعش شفتا المعطشان بلامسة حافة
الكأس .

الشعلة البيضاء



وانقضى نيسان وأنا أزور منزل فارس كرامه والتقي
سلمى وأجلس قبالتها في تلك الحديقة متأملاً محاسنها ، معجباً
بمواهبها ، مصغياً لسكينة كتابتها ، شاعراً بوجود أيد خفية
تجتذبني اليها . فكل زيارة كانت تبين لي معنىً جديداً من
معاني جمالها وسراً علوياً من أسرار روحها حتى أصبحت أمام
عيني كتاباً أقرأ سطورهِ وأستظهر آياته وأترنم بنغمته ولا
استطيع الوصول الى نهايته .

ان المرأة التي تمنحها الآلهة جمال النفس مشفوعاً بجمال الجسد
هي حقيقة ظاهرة غامضة نفهمها بالحبة ونلمسها بالطرير ، وعندما
نحاول وصفها بالكلام تحتفي عن بصائرنا وراء ضباب الخيرة
والالتباس .

وسلمى كرامه كانت جميلة النفس والجسد ، فكيف أصفها
لمن لا يعرفها ؟ هل يستطيع الجالس في ظل أجنحة الموت أن
يستحضر تغريدة البليل ، وهمس الوردية ، وتهيدة الغدير ؟
أيقدر الأسير المثقل بالقيود ان يلاحق هبوب نسائم الفجر ؟

ولكن أليس السكوت أصعب من الكلام ؟ وهل يمنعني التيبب
عن إظهار تخيال من أخيلة سلمى بالألفاظ الواهية اذا كنت
لا أستطيع أن أرسم حقيقتها بخطوط من الذهب ؟ إن الجائع
السائر في الصحراء لا يأبى أكل الخبز اليابس إذا كانت السماء
لا تمطره المن والسوى .

كانت سلمى نحيلة الجسم تظهر بملابسها البيضاء الحريرية
كأشعة قمر دخلت من النافذة . وكانت حركاتها بطيئة متوازنة
أشبه شيء بمقاطيع الألحان الاصطناعية ، وصوتها منخفضاً
حلوأ تقطعه التهنيدات ، فينسكب من بين شفتيها الغرمزيتين مثلما
تتساقط قطرات الندى عن تيجان الزهور بمرور تموجات
الهواء . . ووجهها - ومن يا ترى يستطيع أن يصف وجه
سلمى كرامه ؟ بأية ألفاظ نقدر أن نصور وجهاً حزيناً هادئاً
محجوباً وليس محجوباً بنقاب من الاصفرار الشفاف ؟ بأية لغة
نقدر أن نتكلم عن ملامح تعلن في كل دقيقة سرأ من أسرار
النفس وتذكر الناظرين إليها بعالم روحي بعيد عن هذا العالم ا

ان الجمال في وجه سلمى لم يكن منطبقاً على المقاييس التي
وضعها البشر للجمال ، بل كان غريباً كالحلم او كالرؤيا او
كفكر علوي لا يقاس ولا يحدد ولا ينسخ بريشة المصور ، ولا
يتجسم برخام الحفار . جمال سلمى لم يكن في شعرها الذهبي
بل في حالة الطهر المحيطة به . ولم يكن في عينيها الكبيرتين
بل في النور المنبعث منها . ولا في شفتيها الورديتين بل في

الحلاوة السائلة عليها . ولا في عنقها العاجي بل في كيفية
 انحناؤه قليلاً إلى الأمام . جمال سلمي لم يكن في كمال جسدها
 بل في نبالة روحها الشبيهة بشعلة بيضاء متقدة ساجدة بين الأرض
 واللا نهاية . جمال سلمي كان نوعاً من ذلك النبوغ الشعري الذي
 نشاهد أشباهه في القصائد السامية والرسوم والانغام الخالدة .
 وأصحاب النبوغ تعساء منها تسامت أرواحهم تظل مكتنفة
 بغلاف من الدموع .

وكانت سلمي كثيرة التفكير قليلة الكلام ، لكن سكوتها
 كان موسيقياً ينتقل بجليسها الى مسارح الأحلام البعيدة ،
 ويجعله يصغي لنبضات قلبه ، ويرى أخيلة افكاره وعواطفه
 منتصبة أمام عينيه .

أما الصفة التي كانت تعانق مزايا سلمي وتساور أخلاقها
 فهي الكتابة العميقة الجارحة ، فالكتابة كانت وشاحاً معنوياً
 ترتديه فتزيد محاسن جسدها هيبة وغرابة ، وتظهر أشعة
 نفسها من خلال خيوطه كخطوط شجرة مزهرة من وراء
 ضباب الصباح . وقد أوجدت الكتابة بين روحي وروح سلمي
 صلة المشابهة ، فكان كلانا يرى في وجه الثاني ما يشعر به قلبه
 ويسمع بصوته صدى مخبات صدره ، فكان الآلهة قد جعلت
 كل واحد منا نصفاً للآخر يلتصق به بالظهر فيصير انساناً
 كاملاً ، وينفصل عنه فيشعر بنقص موجه في روحه .

إن النفس الحزينة المتألمة تجد راحة بانضمامها الى نفس

أخرى تماثلها بالشعور وتشاركها بالاحساس مثلما يستأنس
 الغريب بالغريب في أرض بعيدة عن وطنها - فالقلوب التي
 تدنيتها أوجاع الكتابة بعضها من بعض لا تفرقها بهجة الأفراح
 وبهرجتها . فرابطة الحزن أقوى في النفوس من روابط الغبطة
 والسرور . والحب الذي تغسله العيون بدموعها يظل طاهراً
 وجميلاً وخالداً .



العاصفة



وبعد أيام دعاني فارس كرامه إلى تناول العشاء في منزله ،
فذهبت ونفسي جائعة إلى ذلك الخبز العلوي الذي وضعته
السماء بين يدي سلمى ، ذلك الخبز الروحي الذي نلتهمه بأفواه
أفئدتنا فنزداد جوعاً ، ذلك الخبز السعري الذي ذاق طعمه
قيس العربي ودانتي الطلياني وسافو اليونانية فالتهمت أحشاؤهم
وذابت قلوبهم ، ذلك الخبز الذي عجنته الآلهة بجلاوة القبل
ومرارة الدموع وأهدته ما كلاً للنفوس الحساسة المستيقظة
لثة بحبا بطعمه وتعذبها بتأثيره .

ولما بلغت المنزل وجدت سلمى جالسة على مقعد خشبي
في زاوية من الحديقة وقد أسندت رأسها إلى عمد شجرة فبان
بثوبها الأبيض كواحدة من عرائس الخيال تخفر ذلك المكان ،
فدنوت منها صامتاً وجلست بقربها جلوس مجوسي متهيّب أمام
النار المقدسة ، ولما حاولت الكلام وجدت لساني منعقداً
وشفتي جامدتين فاستأنست بالسكوت ، لأن الشعور العميق
غير المتناهي يفقد شيئاً من خاصته المعنوية عندما يتجسم
بالألفاظ المحدودة ، ولكنني شعرت بأن سلمى كانت تسمع في

السكينة مناجاة قلبي المتواصلة وتشاهد في عيني أشباح نفسي المرتعشة .

وبعد هنية خرج فارس كرامه الى الحديقة ومشى نحونا مرحباً بي كعادته باسطاً يده إليّ كأنه يريد أن يبارك بها ذلك السر الخفي الذي يربط روحي بروح ابنته ، ثم قال مبتسماً : هلت يا ولدي الى العشاء فالطعام ينتظرنا . فقمنا وتبعناه وسلمى تنظر إلي من وراء أجفان مكحولة بالرقعة والانعطاف كأن لفظه «يا ولدي» قد أيقظت في داخلها شعوراً جديداً عذباً يكتنف محبتها لي مثلما تحتضن الأم طفلها .

جلسنا الى المائدة نأكل ونشرب وتحدث - جلسنا في تلك الغرفة تتلذذ بالوان الطعام الشبية وأنواع الخور المعتقة وأرواحنا تسبح على غير معرفة منا في عالم بعيد عن هذا العالم وتعلم بما في المستقبل وتتأهب للوقوف أمام غاوفه وأهواله . ثلاثة أشخاص تختلف افكارهم باختلاف مقاصدهم من الحياة وتتفق سرائرهم باتفاق قلوبهم بالمودة والمحبة ، ثلاثة من الضعفاء الأبرياء يشعرون كثيراً ويعرفون قليلاً . وهذه هي المأساة المستتبة على مسرح النفس . شيخ جليل شريف يحب ابنته ولا يحفل بغير سعادتها - وصبية في العشرين من عمرها ترى المستقبل قريباً بعيداً وتحقق اليه لئلا ما يجيء لها من الغبطة والشقاء - وقتى كثير الأحلام والهواجس لم يذوق بعد خمر الحياة ولا خلها يحرك جناحيه ليطير ساجداً في فضاء المحبة والمعرفة ولكنه لا يستطيع

النهوض لضعفه . ثلاثة جالسون حول مائدة انيقة في منزل منفرد عن المدينة تخيم عليه سكينه الدجى وتحديق اليه عيون السماء ، ثلاثة يأكلون ويشربون وفي اعماق صحوهم وكؤوسهم قد اخفى القدر المرارة والاشواك .

ولم نلته من العشاء حتى دخلت علينا احدى الخادومات وخاطبت فارس كرامه قائلة : في الباب رجل يطلب مقابلتك يا سيدي .

فسألها : من هو هذا الرجل ؟ فأجابت : اظنه خادم المطران يا سيدي . فسكت دقيقة وحدق إلى عيني ابنته نظير نبي ينظر الى وجه السماء ليرى ما تخبئه من الأسرار ، ثم التفت نحو الخادمة وقال : دعيه يدخل .

فعدت الخادمة ، وبعد منبهة ظهر رجل بأثواب مزركشة وشارب معقوف الطرفين ، فسلم منحنيًا وخاطب فارس كرامه قائلاً : قد بعثني سيادة المطران بمركبته الخصوصية لاطلب اليك ان تتكرم بالذهاب اليه ، فهو يريد أن يباحثك بأمور ذات أهمية .

فانتصب الشيخ وقد تغيرت ملامحه وانحجبت بشاشة وجهه وراء نقاب من التأمل والتفكير ، ثم اقترب مني وقال بصوت تساوره الرقة والحلاوة : أرجو أن أعود والفاك مهنا ، فسلمي ستجد بك مؤنسا يبعد بأحاديثه وحشة الليل ، ويزيل بأنغام نفسه تأثير الوحدة والانفراد . ثم التفت نحو ابنته وزاد مبتسماً : اليس كذلك يا سلمى ؟

فحننت الصبية رأسها وقد توردت وجنتاها قليلاً ،
وبصوت يضارع نغمة الناي رقة قالت : سوف اجهد النفس
لكي أجعل ضيفنا مسروراً يا والدي .

وخرج الشيخ مصحوباً بخادم المطران وظلت سلمى واقفة
تنظر من النافذة نحو الطريق حتى اختفت المركبة عن بصرها
وراء ستائر الظلام واضمحلت ارتجاج الدواليب بتباعد المسافة
وتشرب السكون حرقرة سنابك الخيل ، ثم جلست قبالي
على مقعد موشى بنسيج من الحرير الأخضر فبانت بأثوابها
الناصعة كزنبقة لوت قامتها نسيمات الصباح على بساط من
الأعشاب .

كذا شامت السماء فخلوت بسلمى ليلاً في منزل منفرد
تخفوه الأشجار ، وتغمره السكينة ، وتسير في جوانبه أخيلة
الحب والطهر والجمال .

ومرت دقائق وكلانا صامت حائر مفكر يترقب الآخر
ليبدأ بالكلام . ولكن هل هو الكلام الذي يحدث التفاهم
بين الأرواح المتحابة ؟ هل هي الأصوات والمقاطع الخارجة
من الشفاه والألسنة التي تقرب بين القلوب والعقول ؟ أفلا
يوجد شيء أسمى مما تلده الأفواه وأظهر مما تهتز به أوتار
الحناجر ؟ أليست هي السكينة التي تحمل شعاع النفس إلى
النفس ، وتنقل همس القلب إلى القلب ؟ أليست هي السكينة
التي تفصلنا عن ذواتنا فنسبح في فضاء الروح غير المحدود
مقترنين من الملا الاعلى ، شاعرين بأن أجسادنا لا تفوق

السجون الضيقة ، وهذا العالم لا يمتاز عن المنفى البعيد ؟
ونظرت سلمى إلي وقد باحت أجفانها بسرائر نفسها ثم
قالت بهدوء سحري : تعال نخرج إلى الحديقة ونجلس بين
الأشجار لنرى القمر طالماً من وراء الجبل .

فوقفت مطيعاً وقلت بمانماً : أليس الأفضل أن نبقى هنا
يا سلمى حتى يطلع القمر وينير الحديقة ؟ أما الآن فالظلام
يحجب الأشجار والأزهار فلا نستطيع أن نرى شيئاً .
فأجابت : إذا حجب الظلام الأشجار والرياحين عن العين
فالظلام لا يحجب الحب عن النفس .

قالت هذه الكلمات بلهجة غريبة ، ثم حوّلت عينيها
ونظرت نحو النافذة ، فبقيت أنا صامتاً مفكراً بكلماتها
مصوراً لكل مقطع معنى ، راسماً لكل معنى حقيقة ، ثم
عادت فحدّقت إليّ كأنها ندمت على ما قالت فحاولت
استرجاع كلماتها من أذنيّ بسحر أجفانها . ولكن سحر تلك
الأجفان لم يسترجع تلك الألفاظ إلا ليعيدها إلى أعماق صدري
أكثر وضوحاً وأشدّ تأثيراً وليبقّيها هناك ملتصقة بقلبي
متموجة مع عواطفي إلى آخر الحياة

كل شيء عظيم وجميل في هذا العالم يتولد من فكر واحد
أو من حسنة واحدة في داخل الإنسان . كل ما نراه اليوم من
أعمال الأجيال الغابرة كان قبل ظهوره فكراً خفياً في عاقلة
رجل أو عاطفة لطيفة في صدر امرأة ... الثورات الهائلة

التي أجرت الدماء كالسواقي وجعلت الحرية تعبد كآلهة كانت
فكراً خيالياً مرتعشاً بين تلافيف دماغ رجل فرد عائش بين
ألوف من الرجال . والحروب الموجهة التي ثلث العروش
وخربت الممالك كانت خاطراً يتمايل في رأس رجل واحد .
والتعالم السامية التي غيرت مسار الحياة البشرية كانت ميلاً
شعرياً في نفس رجل واحد منفصل بنبوغه عن محيطه .
فكر واحد أقام الأهرام وعاطفة واحدة خربت تروادة
وخاطر واحد أوجد مجسد الإسلام وكلمة واحدة أحرقت
مكتبة الاسكندرية .

فكر واحد يمينك في سكين الليل يسير بك إلى المجد
أو إلى الجنون . نظرة واحدة من أطراف أجفان امرأة
تجعلك أسعد الناس أو أتعسهم . كلمة واحدة تخرج من بين
شفتي رجل تصورك غنياً بعد الفقر أو فقيراً بعد الغنى ...
كلمة واحدة لفظتها سلمى كرامه في تلك الليلة الهادئة أوقفتني
بين ماضي ومستقبلي وقوف سفينة بين لجة البحار وطبقات
الفضاء . كلمة واحدة معنوية قد أيقظتني من سبات الحداثة
والخسار وسارت بأيامي على طريق جديدة إلى مسارح الحب
حيث الحياة والموت .

خرجنا إلى الحديقة وسرنا بين الأشجار شاعرين بأصابع
النسيم الخفية تلامس وجهنا وقامات الأزهار والأعشاب اللدنة
تتمايل بين أقدامنا ، حتى إذا ما بلغنا شجرة الياسمين جلسنا
صامتين على ذلك المقعد الخشبي نسمع تنفس الطبيعة

النائمة ونكشف بجلاوة التنهد خفايا صدرينا أمام عيون السماء
الناظرة إلينا من وراء أزرقاق السماء .

وطلع القمر إذ ذاك من وراء صئين وغمر بنوره تلك
الروابي والشواطئ ، فظهرت القرى على اكتاف الأودية كأنها
قد انبثقت من اللاشيء ، وبان لبنان جميعه من تحت تلك الأشعة
الفضية كأنه فتى متكئ على ساعده تحت نقاب لطيف يخفي
أعضائه ولا يخفيها .

لبنان عند شعراء الغرب مكان خيالي قد اضمحلت حقيقته
بذهاب داود وسليمان والأنبياء مثلما انجسبت جنة عدن بسقوط
آدم وحواء ، هو لفظة شعرية لا اسم جبل - لفظة ترمز عن
عاطفة في النفس وتستحضر إلى الفكر رسوم غابات من الأرز
يفوح منها العطر والبخور ، وأبراج من النحاس والرغام تتعالى
بالمجد والعظمة ، واسراب من الغزلان تتهادى بين الطلول
والأودية . وأنا قد رأيت لبنان في تلك الليلة مثل فكر
شعري خيالي منتصب كالحلم بين اليقظة واليقظة . كذا تتغير
الأشياء أمام أعيننا بتغير عواطفنا ، وهكذا نتوهم الأشياء
متشعة بالسحر والجمال عندما لا يكون السحر والجمال إلا في
نفوسنا .

والتفتت إليّ سلمى وقد غمر نور القمر وجهها وعنقها
ومعصمها فبانَتْ كتمثال من العاج نحتته أصابع متعبد لعشائرت
ربة الحسن والحبة : لماذا لا تتكلم ؟ لماذا لا تحدثنني عن ماضي
حياتك ؟

فنظرت إلى عينيها المنيرتين ، ومثل أخرس فاجأ النطق
شفتيه أجبتها قائلاً : ألم تسمعي متكلماً مذ جئت إلى هذا
المكان ؟ أو لم تسمعي كل ما قلته مذ خرجنا إلى هذه الحديقة ؟
إن نفسك التي تسمع همس الأزهار وأغاني السكينة تستطيع أن
تسمع صراخ روحي وضجيج قلبي .

فحجبت وجهها بيديها ثم قالت بصوت متقطع : قد
سمعتك ... نعم سمعتك . سمعت صوتاً صارخاً خارجاً من
احشاء الليل وضجة هائلة منبثقة من قلب النهار .

فقلت بسرعة وقد نسيت ماضي حياتي ونسيت كياني
ونسيت كل شيء ولم أعد أعرف سوى سلمى ولا أشعر بغير
وجودها : وأنا قد سمعتك يا سلمى - سمعت نعمة عظيمة
محبة جارحة تتموج لها دقائق الفضاء وتهتز بارتعاشها أسس
الأرض .

فأغمضت سلمى أجفانها وظهر على شفثيها القرمزيتين خيال
ابتسامة محزنة ثم همست قائلة : قد عرفت الآن انه يوجد
شيء أعلى من السماء وأعظم من البحر وأقوى من الحياة والموت
والزمن . وقد عرفت الآن بما لم أكن اعرفه بالأمس ولا
أحلم به .

منذ تلك الدقيقة صارت سلمى كرامه أعز من الصديق
وأقرب من الأخت وأحب من الحبيبة . صارت فكراً
سامياً يتبع عافلتى وعاطفة رقيقة تكتنف قلبي وحلماً جميلاً
يحور نفسي .

ما أجهل الناس الذين يتوهمون ان المحبة تتولد بالمعاشرة الطويلة والمرافقة المستمرة . ان المحبة الحقيقية هي ابنة التفاهم الروحي وإن لم يتم هذا التفاهم بلحظة واحدة لا يتم بعام ولا يجيل كامل .

ورفعت سلمى رأسها ونظرت نحو الأفق البعيد حيث تلتقي خطوط صنين بأذيال الفضاء ، ثم قالت : لقد كنت لي بالأمس مثل أخ أقترب منه مطمئنة وأجلس بجانبه في ظلال والدي ، أما الآن فقد شعرت بوجود شيء أقوى وأعذب من العلاقة الأخوية ، قد شعرت بعاطفة غريبة مجردة عن كل علاقة . عاطفة قوية خفيفة لذيدة تملأ قلبي حزنًا وفرحًا .

فأجبتها : أليست هذه العاطفة التي نخافها ونرتجف لمرورها في صدورنا جزءاً من الناموس الكلي الذي يسير القمر حول الأرض ، والأرض حول الشمس ، والشمس وما يحيط بها حول الله ؟

فوضعت يدها على رأسي وغرست أصابعها بشعري وقد تهلل وجهها وترقرقت الدموع في عينيها مثلما تلمع قطرات الندى على أطراف أوراق النرجس ، ثم قالت : مَنْ مِنَ البشر يصدق حكايتنا ؟ من منهم يصدق اننا في الساعة التي تجيء بين غروب الشمس وطلوع القمر قد قطعنا العقبات واجتازنا المعابر الكائنة بين الشك واليقين من منهم يعتقد أن نيسان الذي جمعنا لأول مرة هو الشهر الذي أوقفنا في قدس أقداس الحياة ؟

قالت هذه الكلمات ويدها ما برحت على رأسي المنعني ،
ولو تخيرت في تلك الدقيقة لما فضلت تيجان الملوك وأكاليل
الفار على تلك اليد الحريرية المتلاعبة بشعري . ثم أجبتها قائلاً :
ان البشر لا يصدقون حكايتنا لأنهم لا يعلمون بأن المحبة هي
الزهرة الوحيدة التي تنبت وتنمو بغير معاونة الفصول ،
ولكن هل هو نيسان الذي جمعنا لأول مرة ؟ وهل هي هذه
الساعة التي أوقفتنا في قدس أقداس الحياة ؟ أما جمعت روحينا
قبضة الله قبل ان تصيرنا الولادة أسيري الايام والليالي ؟ ان
حياة الانسان يا سلمى لا تبتدىء في الرحم كما انها لا تنتهي
أمام القبر ، وهذا الفضاء الواسع المملوء بأشعة القمر
والكواكب لا يخلو من الأرواح المتعانقة بالمحبة والنفوس
المتضامنة بالتفاهم .

ورفعت سلمى يدها بلطف عن رأسي تاركة بين منارس
الشعر توجات كهربائية يتلاعب بها نسيم الليل فيزيده . ثم
وحراكاً ، فأخذت تلك اليد براحتي نظير متعبد يتبرك بلثم
المذبح ووضعته على شفتي الملتهبتين وقبلتها قبلة طويلة عميقة
خرساء تذيب بجزارتها كل ما في القلب البشري من الاحساس
وقلبه . بعدوئتها كل ما في النفس الالهية من الطهر .

ومرت علينا سائفة كل دقيقة منها عام شغف ومحبة ،
تساورنا سكينه الليل وقفمنا أشعة القمر وتحيط بنا الأشجار
والرياحين ، حتى إذا ما بلغنا تلك الحالة التي ينسى فيها

الانسان كل شيء سوى حقيقة الحب سمعنا وقع حوافر وهدير
 مركبة تقترب منا بسرعة ، فانتبهنا من تلك الغيبوبة اللذيذة
 وهبطت بنا اليقظة من عالم الاحلام إلى هذا العالم الواقف بمسيرة
 بين الحيرة والشقاء ، فعرفنا ان الوالد الشيخ قد عاد من دار
 المطران فسرنا بين الاشجار ننتظر وصوله . وبلغت المركبة
 مدخل الحديقة فترجل فارس كرامه وسار نحونا منحني الرأس
 بطيء الحركة ، ونظير متعب رازح تحت حمل ثقيل تقدم نحو
 سلمى ووضع كلتا يديه على كتفها وحدق الى وجهها طويلا
 كأنه يخاف ان تغيب صورتها عن عينيه الضيلتين ، ثم
 انسكبت دموعه على وجنتيه المتجمعتين وارتجت شفتاه
 بابتسامة محزنة وقال بصوت مخنوق : عما قريب يا سلمى ، عما
 قريب تخرجين من بين ذراعي والدك إلى ذراعي رجل آخر .
 عما قريب تسير بك سنة الله من هذا المنزل المنفرد إلى ساحة
 العالم الواسعة فتصبح هذه الحديقة مشتاقة إلى وطء قدميك
 ويصير والدك غريبا عنك . لقد لفظ القدر كلمته يا سلمى ،
 فلتباركك السماء وتحرسك !

سمعت سلمى هذه الكلمات فتغيرت ملامحها وجدت عيناها
 كأنها رأت شبح الموت منتصباً أمامها ، ثم شهقت وتقلعت
 متوجعة كمصفور رماه الصياد فهبط على الحضيض مرتجفاً
 بالامه ، وبصوت تقطعه القصات العميقة صرخت قائلة : ماذا
 تقول ؟ ماذا تعني ؟ إلى أين تريد أن تبعث بي ؟ .

ثم شخصت به كأنها تريد أن تزيل بنظراتها الغلاف عن
نخبآت صدره . وبعد دقيقة مثقلة بعوامل ذلك السكون
الشبيه بصراخ القبور قالت متأوهة : قد فهمت الآن ... قد
عرفت كل شيء ... ان المطران قد فرغ من حبك قضبان
القفص الذي أعده لهذا الطائر المكسور الجناحين ، فهل هذه
هي إرادتك يا والدي ؟ .

فلم يجيبها بغير التنهدات العميقة ، ثم أدخلها الدار وأشعة
الحنو تنسكب من ملامحه المضطربة ، فبقيت أنا واقفاً بين
الأشجار والحيرة تتلاعب بعواطفي مثلها تتلاعب العواصف
بأوراق الخريف ، ثم تبعتهما الى القاعة . وكيلا أظهر بظهر
طفيلي يميل الى استطلاع الخصوصيات أخذت يد الشيخ مودعا
ونظرت الى سلمى نظرة غريقت تلف نحو نجم لامع في قبة
الفلك ، ثم خرجت دون ان يشعرا بخروجي ، ولكنني ما
بلغت أطراف الحديقة حتى سمعت صوت الشيخ مناديا ، فالتفت
واذا به يتبعني ، فعدت الى لقائه ، ولما دنوت منه أمسك بيدي
وقال بصوت مرتعش : سامحي يا ابني فقد جعلت ختام ليلتك
مكتنفا بالدموع ، ولكنك سوف تجيء الي دائما ، أليس كذلك ؟
ألا تزورني عندما يصير هذا المكان خالياً إلا من الشيخوخة
المرزنة ؟ ان الشباب الغض لا يستأنس بالشيخوخة الذابلة كما ان
الصباح لا يلتقي بالمساء ، أما أنت فسوف تجيء إلي لتذكرني
بأيام الصبا التي صرفتها بقرب أبيك وتميد على مسمعي أخبار

الحياة التي لم تعد تحسبني من أبنائها ، اليس كذلك ؟ ألا تزورني عندما تذهب سلمى وأصبح وحيداً منفرداً في هذا المنزل البعيد عن المنازل ؟

لفظ الكلمات الأخيرة بصوت منخفض متقطع ، ولما أخذت يده وهزتها صامتاً أحسست بقطرات من الدموع السخينة قد تساقطت على يدي من جفانه ، فارتعشت نفسي في داخلي وشعرت نحوه بماطفة بنوخ عذبة محزنة تتأيل بين ضلوعي وتتصاعد كاللهاث الى شفتي ثم تعود كالغصبات الى أعماق قلبي . ولما رفعت رأسي ورأيت ان دموعه قد استدرت الدموع من أجفاني انحنى قليلاً ولمس بشفتيه المرتجفتين أعلى جبهتي ثم قال محولاً وجهه نحو باب المنزل : مساء الخير ... مساء الخير يا ابني .

ان دموعه واحدة تتلمع على وجنة شيخ متجمدة هي أشد تأثيراً في النفس من كل ما تهرقه أجفان الفتيان .

ان دموع الشباب الغزيرة هي مما يفيض من جوانب القلوب المترعة ، اما دموع الشيوخ فهي فضلات العمر تنسكب من الأحداق ، هي بقية الحياة في الأجساد الواهنة . الدموع في أجفان الشبيبة كقطرات الندى على اوراق الوردة ، أما الدموع على وجنة الشيخوخة فأشبه بأوراق الخريف المصفرة التي تنثرها الرياح وتذريرها عندما يقترب شتاء الحياة .

واختفى فارس كرامه وراء مصراعي الباب وخرجت أفا

من تلك الحديقة وصوت سلمى يتموج في أذنيّ ، وجمالها يسير
 كالخيال أمام عينيّ ، ودموع والدها تجف ببطء على يديّ .
 خرجت من ذلك المكان خروج آدم من الفردوس ، ولكن
 حواء هذا القلب لم تكن يجاني لتجعل العالم كله فردوساً .
 خرجت شاعراً بأن تلك الليلة التي ولدت فيها ثانية هي الليلة
 التي لمحت فيها وجه الموت لأول مرة .
 كذا تحيي الشمس الحقول بجزارتها ، وبجزارتها تتيها .

صحيرة النار

•

كل ما يفعله الانسان سرّاً في ظلمة الليل يظهره الانسان علناً في نور النهار . الكلمات التي تهمسها شفاهنا في السكينة تصير على غير معرفة بمنّا حديثاً عمومياً ، والأعمال التي نحاول اليوم إخفاءها في زوايا المنازل تتجسم غداً وتلتصب في منعطفات الشوارع .

كذا أعلنت أشباح الدجى مقاصد المطران بولس غالب من اجتماعه بفارس كرامه ، وهكذا حملت دقائق الأثير أقواله وأحاديثه إلى احياء المدينة حتى بلغت مسمعي .

ما طلب المطران بولس غالب مقابلة فارس كرامه في تلك الليلة القمرية ليفاوضه بشؤون الفقراء والموزين أو يخاطبه بأمور الأراذل والأيتام ، بل أحضره بمركبته الخصوصية الفخمة ليطلب منه ابنته سلمى عروساً لابن أخيه منصور بك غالب .

كان فارس كرامه رجلاً غنياً ولم يكن له وازن سوى ابنته سلمى ، وقد اختارها المطران زوجة لابن أخيه ، لا

لجمال وجهها ونبالة روحها بل لأنها غنية موسرة تكفل بأموالها الطائلة مستقبل منصور بك وتساعده بأملأها الواسعة على إيجاد مقام رفيع بين الخاصة والاشراف .

ان رؤساء الدين في الشرق لا يكتفون بما يحصلون عليه أنفسهم من المجد والسؤدد بل يفعلون كل ما في وسعهم ليجعلوا أنسابهم في مقدمة الشعب ومن المستبدين به والمستدرين قواه وأمواله . ان مجد الأمير ينتقل بالارث إلى ابنه البكر بعد موته ، أما مجد الرئيس الديني فينتقل بالعدوى إلى الأخوة وأبناء الاخوة في حياته . وهكذا يصبح الأسقف المسيحي والامام المسلم والكاهن البرهمي كأفاعي البحر التي تقبض على الفريسة بمقابض كثيرة وتمتص دماءها بأفواه عديدة .

عندما طلب المطران بولس يد سلمى من والدها لم يحبه ذلك الشيخ بغير السكوت العميق والدموع السخينة . وأي والد لا يشق عليه فراق ابنته حتى ولو كانت ذاهبة إلى بيت جاره أو إلى قصر ملك ؟ أي رجل لا ترتعش أعماق نفسه بالفصات عندما يفصله ناموس الطبيعة عن الابنة التي لاعبها طفلة وهذبا صبية ورافقها امرأة ؟ ان كآبة الوالدين لزواج الابنة يضارع فرحهما بزواج الابن ، لأن هذا يكسب العائلة عضواً جديداً أما ذاك فيسلبها عضواً قديماً . عزيزاً - أجاب الشيخ طلب المطران مضطراً وانحنى أمام مشيئته قهراً عما في داخل نفسه من الممانعة ، وكان قد اجتمع بابن أخيه منصور بك وسمع الناس يتحدثون عنه

فعرّف خشوتته وطبعه والمحطاط أخلاقه ، ولكن أي مسيحي
 يقدر أن يقاوم أسقفاً في سوريا ويبقى محسوباً بين المؤمنين ،
 أي رجل يخرج عن طاعة رئيس دينه في الشرق ويظل كريماً
 بين الناس ؟ أتمانّد العين سهماً ولا تفقأ أو تناضل اليد سيفاً
 ولا تقطع ؟ وهب أنت ذلك الشيخ كان قادراً على مخالفة
 المطران بولس والوقوف أمام مطامعه فهل تكون سمعة ابنته
 في مأمن من الظنون والتأويل ، وهل يظل اسمها نقياً من أوساخ
 الشفاه والألسنة ؟ أو نيست جميع العناقيد العالية حامضة في
 شرع بنات آوى ؟

هكذا قبض القدر على سلمى كرامه وقادها عبدة ذليلة
 في مركب النساء الشرقيات التاعسات ، وهكذا سقطت تلك
 الروح النبيلة بالحبائل بينما كانت تسبح لأول مرة على أجنحة
 الحب البيضاء في فضاء تملأه أشعة القمر وتعطره رائحة
 الأزاهر .

إن أموال الآباء تكون في أكثر المواطن مجلبة لشقاء البنين
 تلك الخزائن الواسعة التي يملأها نشاط الوالد وحرص الأم
 تنقلب حبوساً ضيقة مظلمة لنفوس الورثة . ذلك الإله العظيم
 الذي يعبدّه الناس بشكل الدينار ينقلب شيطاناً خيفاً يعذب
 النفوس ويميت القلوب . وسلمى كرامه هي كالكثيرات من
 بنات جنسها اللواتي يذهبن ضحية ثروة الوالد وأمانى العريس .
 فلو لم يكن فارس كرامه رجلاً غنياً لكانت سلمى اليوم حية
 تفرح مثلنا بنور الشمس .

مرّ اسبوع وحب سلمى يحالسنى في المساء منشداً على
 مسمعي اغاني السعادة وينبهي عند الفجر ليريني معاني الحياة
 وأسرار الكيان. حبّ علوي لا يعرف الحسد لأنه غني ، ولا
 يوجع الجسد لأنه في داخل الروح . ميل قوي يغمز النفس
 بالقناعة . مجاعة عميقة تملأ القلب بالاكتماء . عاطفة تولد
 الشوق ولكنها لا تثيره . فتون جعلني أرى الأرض نعيماً
 والسر حلماً جميلاً . فكنت أسير صباحاً في الحقول وأرى في
 بقطة الطبيعة رمز الخلود ، وأجلس على شاطئ البحر وأسمع
 من أمواجه أغاني الأبدية ، وأمشي في شوارع المدينة وأجد
 في طلعات المارين وحركات المشتغلين محاسن الحياة وبهجة
 العمران .

تلك أيام مضت كالأشباح واضمحلت كالضباب ولم يبق
 لي منها سوى الذكرى الأليمة ، فالعين التي كنت أرى بها
 جمال الربيع وبقطة الحقول لم تعد تحدد إلى غير غضب
 العواصف ويأس الشتاء . والأذن التي كنت أسمع بها أغنية
 الأمواج لم تعد تصغي لغير أنة الأعماق وعويل الهاوية. والنفس
 التي كانت تقف متهيبة أمام نشاط البشر ومجد العمران لم تعد
 تشعر بغير شقاء الفقر وتعاسة الساقطين . فما أحلى أيام
 الحب وما أعذب أحلامها وما أمرّ ليالي الحزن وما أكثر
 مخاوفها !

وفي نهاية الأسبوع وقد سكرت نفسي بخمرة عواطف سررت
 مساء إلى منزل سلمى كرامه ، ذلك الهيكل الذي أقامه الجمال

وقدسه الحب لتسجد فيه النفس مصلية ويركع القلب خاشعاً ،
ولما بلغته ودخلت الى تلك الحديقة المهادنة أحسست بوجود
قوة تستهويني وتستميلني وتبعدني عن هذا العالم وتدنيني ببطء
إلى عالم سحري خال من العراك والجهاد ، ومثل متصوف
جذبت به السماء إلى مسارح الرؤيا وجددتني سائراً بين تلك الأشجار
المهتبكة والزهور المتعانقة ، حتى إذا ما اقتربت من باب
الدار التفت وإذا بسلمى جالسة على ذلك المقعد بظلال شجرة
الياسمين حيث جلسنا منذ أسبوع في تلك الليلة التي اختارتها
الآلهة من بين الليالي وجعلتها بدء سعادتي وشقائي ، قدنوت
منها صامتاً فلم تتحرك ولم تتكلم كأنها علمت بقدومي قبل
قدومي ولما جلست بجانبها حدثت إلى عيني دقيقة وتهدت
تهدئة طويلة عميقة ثم عادت فنظرت إلى الشفق البعيد حيث
تعبث أوائل الليل بأواخر النهار . وبعد هنيهة بملاوءة بتلك
السكينة السحرية التي تضم نفوسنا إلى مواكب الأرواح غير
المنظورة ، حولت سلمى وجهها نحوي وأخذت يدي بيد
مرتعة باردة وبصوت يشابه تأوه جائع لا يقوى على الكلام
قالت :

انظر الى وجهي يا صديقي ، انظر الى وجهي جيداً وتأمله
طويلاً واقرأ فيه كل ما تريد ان تفهمه مني بالكلام ...
انظر الى وجهي يا حبيبي ... أنظر جيداً يا أخي .
فنظرت إلى وجهها ، نظرت طويلاً ، فرأيت تلك الاجفان التي
كانت منذ أيام قليلة تبتسم كالشفاه وتتحرك كأجنحة

الشعور قد غارت وجدت واكتحلت بخيالات التوجع والآلم،
 رأيت تلك البشرة التي كانت بالأمس مثل ثنانيا الزنبقة البيضاء
 الفرحة بقبلات الشمس ، قد اصفرت وذبلت وتبرقعت بنقاب
 القنوط . رايت الشفتين اللتين كانتا كزهرة اقاح تسيل عليها
 الحلاوة قد يبستا وصارتا كوردنين مرتجفتين أبقاهما الحريف
 على طرف الغصن . رأيت العنق الذي كان مرفوعاً كعمود
 العاج قد انحنى الى الأمام كأنه لم يعد قادراً على حمل ما يحول
 في تلاقيف الرأس .

رأيت هذه الانقلابات الموجعة في ملامح سلمى، رأيتها جميعها
 ولكنها لم تكن في نظري الا كسحابة رقيقة توشح القمر
 فتزيد منظره حسناً وهيبه . ان الملامح التي تبيح أسرار
 الذات المعنوية تكسب الوجه جمالا وملاحة مها كانت تلك
 الأسرار موجعة وأليمة . اما الوجوه التي لا تتكلم بصمتها
 عن غوامض النفس وخفاياها فلا تكون جميلة مها كانت
 متناسقة الخطوط متناسبة الاعضاء . إن الكؤوس لا تستميل
 شفاها حتى يشف بلورها عن لون الخمر . فسلى كرامه كانت
 في عشية ذلك النهار مثل كأس طافحة من خمرة علوية تتمزج
 بدقائقها مرارة العيش بحلاوة النفس . كانت تمثل على غير
 معرفة منها حياة المرأة الشرقية التي لا تفاد منزل والدها
 المحبوب إلا لتضع عنقها تحت نير زوجها الحشن ... ولا
 تترك ذراعي أمها الرؤوف إلا لتعيش في عبودية والده زوجها
 القاسية .

وبقيت محذراً الى وجه سلمى مصغياً لأنفاسها المتقطعة صامتاً مفكراً شاعراً متألماً معها ولها ، حتى أحسست ان الزمن قد وقف عن مسيره والوجود قد انحجب واضمحل ولم أعد أرى سوى عينين كبيرتين محدقتين الى اعماقي ، ولا أشعر بغير يد باردة مبرّعة تضم يدي . ولم أفق من هذه الغيبوبة حتى سمعت سلمى تقول يهدوء: تعال نتحدث الآن يا صديقي . تعال لمحاول تصوير المستقبل قبل ان يحمل علينا بمخاوفه واهواله . لقد ذهب والذي الى منزل الرجل الذي سيكون رفيقاً لي حتى القبر . قد ذهب الرجل الذي اختارته السماء سبباً لوجودي ليلتقي الرجل الذي انتقته الأرض سيداً علي أيامي الآتية . ففي قلب هذه المدينة يجتمع الآن الشيخ الذي رافق شببتي بالشاب الذي سيرافق ما بقي لي من السنين ، وفي هذه الليلة يتفق الوالد والخطيب على يوم القران الذي سيكون قريباً منها بجعله بعيداً ، فما أغرب هذه الساعة وما أشد تأثيرها ! في مثل هذه الليلة من الأسبوع الغابر . وفي ظلال هذه الياسمين قد عانق الحب روحي لأول مرة ، بينما كان القدر يخط أول كلمة من حكاية مستقبلي في دار المطران بولس غالب . وفي هذه الساعة وقد جلس والذي وخطبي ليضفرا لكيل زواجي ، أراك جالساً يجاني واشعر بنفسك متوجة حولي كطائر ظامئ يحوم مرفرفاً فوق ينبوع ماء يخفّره ثمان جائع نحيف ، فما اعظم هذه الليلة وما اعظم اسرارها!

(الاجنحة المتكسرة (٤)

فأجبتها وقد تخيلت القنوط شعباً مظلماً قابضاً على عنق
حبنا ليميته في طفوليته : سيظل هذا الطائر حائماً مرفرفاً
فوق الينبوع حتى يرضيه العطش فيرديه او يقبض عليه الشعبان
الخفيف فيمزقه ويلتهمه .

فقال متأثرة وصوتها يرتجف كالأوتار الفضية : لا ، لا يا
صديقي ، فليبق هذا الطائر حياً ، ليبقى هذا البلبل مغرداً
حتى المساء ، حتى ينتهي الربيع حتى ينتهي العالم ، حتى
تنتهي الدهور . لا تخرسه لأن صوته يحييني ، ولا توقف
جناحيه لأن حفيفها يزيل الضباب عن قلبي .

فهمست متنهداً : الظلم يقتله يا سلى والخوف يميته .

فأجابت والكلام يتدفق بسرعة من بين شفثيها
المرتعشتين : ان ظمأ الروح اعظم من ارتواء المادة ، وخوف
النفس أحب من طمأنينة الجسد .. ولكن اسمع يا حبيبي ،
اسمعي جيداً ، انا واقفة الآن في باب حياة جديدة لا أعرف
عنها شيئاً . أنا مثل عيماة تتلمس بيدها الجدران مخافة
السقوط . أنا جارية أزلني مال والدي الى ساحة النخاسين
فابتاعني رجل من بين الرجال . انا لا احب هذا الرجل لأنني
اجله ، وانت تعلم ان المحبة والجهالة لا تلتقيان ، ولكنني سوف
أتعلم محبته . سوف أطيعه وأخدمه وأجعله سعيداً . سوف
أهبه كل ما تقدر المرأة الضعيفة أن تهب الرجل القوي .
أما أنت فلم تزل في ربيع العمر ، أمامك الحياة طريقاً واسعة

مفروشة الأزهار والرياحين . سوف تخرج إلى ساحة العالم حاملاً قلبك مشعلاً متقدماً . سوف تفكر بحرية وبحرية تتكلم وتفعل . سوف تكتب اسمك على وجه الحياة لأنك رجل . سوف تعيش سيداً ، لأن فاقة والدك لا تجعلك عبداً ، وأمواله لا تنزل بك إلى سوق النخاسين حيث تباع البنات وتشترى . سوف تقترن بالصبيبة التي تختارها نفسك مزين الصبايا فتسكنها صدرك قبل أن تسكنها منزلك ، وتشاركها بأفكارك قبل أن تسامها الأيام والليالي .

وسكنت دقيقة كما تسترجع أنفاسها ، ثم زادت بصوت تنابعه الغصات : ولكن أهنا تفرقنا سبل الحياة لتذهب بك إلى أمجاد الرجل وتسير بي إلى واجبات المرأة ؟ أهكذا ينقضي الحلم الجميل وتندثر الحقيقة العذبة ؟ أهكذا تبتلع اللبنة نعمة الشعور وتنثر الرياح أوراق الورد وتسحق الأقدام كأس الخمر ؟ أباطلاً أوقفنا تلك الليلة أمام وجه القمر وباطلاً ضمنا الروح في ظلال هذه الياسمين ؟ هل تسرعنا بالصعود نحو الكواكب فكنت أجنحتنا وهبطت بنا إلى الهاوية ؟ هل فاجأنا الحب نائماً فاستيقظ غاضباً ليعاقبنا ، أم هيجت أنفاسنا نسائم الليل فانقلبت ريحاً شديدة لتمزقنا وتجرقنا كالغبار إلى أعماق الوادي ؟ لم نخالف وصية ولم ندق ثمراً فكيف نخرج من هذه الجنة ؟ لم نتأمر ولم نتمرد فلماذا نهبط إلى الجحيم ؟ لا لا وألف لا ولا . إن الدقائق التي جمعناها هي أعظم من الأجيال ، والشعاع الذي أثار نفسينا هو أقوى

من الظلام ، فان فرقتنا العاصفة على وجه هذا البحر الغضوب
فالأمواج تجمعنا على ذلك الشاطئ الهادئ ، وان قتلنا هذه
الحياة فذاك الموت يحينا .

ان قلب المرأة لا يتغير مع الزمن ولا يتحول مع الفصول
قلب المرأة ينزاع طويلا ولكنه لا يموت . قلب المرأة يشابه
البرية التي يتخذها الإنسان ساحة لحروبه ومذابحه ، فهو يقتلع
أشجارها ويحرق أعشابها ويلطخ صخورها بالدماء ويفرس
تربتها بالعظام والجحيم ، ولكنها تبقى هادئة ساكنة مطمئنة
ويظل فيها الربيع ربيعاً والخريف خريفاً الى نهاية الدهور ...
والآن قضي الأمر فإذا نفعل ؟ قل لي ماذا نفعل وكيف
نفترق ومتى نلتقي ؟ هل نحسب الحب ضعفاً غريباً أتى به
المساء وأبعد الصبح ؟ أنحسب هذه العاطفة النفسية حلماً
أبانه الكرى ثم أخفته اليقظة ؟ أنحسب هذا الأسبوع ساعة
سكر ما لبثت ان قضت بالصحو والانتباه ؟ .. ارفع رأسك
لأرى عينيك يا حبيبي افتح شفئك لأسمع صوتك . تكلم ،
اخبرني ، حدثني ، هل تذكرني بعد أن تفرق العاصفة سفيني
أيامنا ؟ هل تسمع حفيف أجنحتي في سكينه الليل ؟ هل
تشعر بأنفاسي متموجة على وجهك وعنقك ؟ هل تصني
لتهداتي متصاعدة بالتوجع منخفضة بالفصاة ؟ وهل ترى
خيالي قادماً مع خيالات الظلام مضجلاً مع ضباب الصبح ؟
قل لي يا حبيبي ، قل لي ماذا تكون لي بعد ان كنت نوراً
لعيني ونعمة لأذني وجناحاً لروحي ، ماذا تكون ؟

فأجبتها وحبسات قلبي تذوب في عيني : سأكون لك
يا سلمى مثلما تريدني ان أكون .

فقلت : أريدك أن تحبني . أريدك أن تحبني إلى نهاية
أيامي . أريدك أن تحبني مثلما يحب الشاعر أفكاره المحزنة .
أريدك أن تذكرني مثلما يذكر المسافر حوض ماء هادئ
رأى فيه نحيال وجهه قبل ان يشرب من مائه . وأريدك أن
تذكرني مثلما تذكر الأم جنيناً مات في أحشائها قبل ان يرى
النور . وأريدك أن تفكر بي مثلما يفكر الملك الرؤوف
بسجين مات قبل أن يبلغه عفوه . أريدك أن تكون لي أختاً
وصديقاً ورفيقاً . أريدك أن تزور والذي في وحدته وتعزيه
في انفراده ، لأنني عما قريب سأتركه وأصير غريبة عنه .

فأجبتها : سأفعل كل ذلك يا سلمى . سوف أجعل روحي
غلافاً لروحك ، وقلبي بيتاً لجمالك ، وصبري قبرا لأحزانك .
سوف أحبك يا سلمى بحبة الحقول للربيع . سوف أحيا بك
حياة الأزهار بحرارة الشمس . سوف أترنم باسمك مثلما يترنم
الوادي بصدى رنين الأجراس المتأيلة فوق كنائس القرى .
سوف أصغي لأحاديث نفسك مثلما تصغي الشواطئ لحكاية
الأمواج ... سأذكرك يا سلمى مثلما يذكر الغريب المستوحش
وطنه المحبوب ، والفقر الجائع مائدة الطعام الشهية . والملك
المخلوع أيام عزه ومجده ، والأسير الكئيب ساعات الحرية
والطمأنينة . سوف أفكر بك مثلما يفكر الزارع بأغمار

السنابل وغلة اليبادر ، والراعي الصالح بالمروج الخضراء
والمناهل العذبة .

كنت أنكلم وسلمى تنظر الى أعماق الليل وتتاوه بين الآونة
والأخرى ، ونبضات قلبها تتسارع وتتهاول كأنها أمواج بحر بين
صعود وهبوط . ثم قالت : غداً تصير الحقيقة خيالاً واليقظة
حلماً ، فهل يكتفي المشتاق بعناق الخيال ويرقوي الظمآن
من جداول الأحلام ؟

فأجبتها قائلاً : غداً يسير بك القدر إلى أحضان العائلة
المملوءة بالراحة والهدوء ، ويسير بي إلى ساحة العالم حيث
الجهاد والقتال . أنت الى منزل رجل يسعد بحمالك وطهر
نفسك . وأنا إلى مكان أيام تعذبني بأحزانها وتخيفني
بأشباحها . أنت إلى الحياة وأنا إلى اللزع . أنت إلى الأنس
والالفة وأنا إلى الوحشة والانفراد . ولكنني سأرفع في وادي
ظل الموت تمثالاً للحب وأعبده . سأأخذ الحب سيراً وأسمعه
منشداً وأشربه خراً وألبسه ثوباً . عند الفجر سينبهي الحب
من رقادي ويسير أمامي إلى البرية البعيدة . وعند الظهيرة
سيقودني الى ظل الأشجار فأربض مع العصفير المحتمة من
حرارة الشمس . وفي المساء سيوقفني امام المغرب ويسمعي
نغمة وداع الطبيعة للنور ويريني أشباح السكينة سابحة في
الفضاء . وفي الليل سيعانقني فأنام حالماً بالعوالم العلوية حيث
تقطن أرواح العشاق والشعراء . وفي الربيع سأمشي والحب

جنباً لجنب ، مترنمين بين التلول والمنحدرات متبعين آثار اقدم الحياة المخططة بالبنفسج والاقحوان ، شاربين بقايا الامطار بكؤوس النرجس والزنبق . وفي الصيف سأتكىء والحب ساندني رأسينا إلى أغمار القش مفترشين لاعشاب ملتحفين السماء ساهرين مع القمر والنجوم . وفي الخريف سأذهب والحب إلى الكروم فنجلس بقرب المعاصر ناظرين إلى الاشجار وهي تخلع أثوابها المذهبة متأملين بأسراب الطيور الراحلة إلى الساحل . وفي الشتاء سأجلس والحب بقرب الموقد تألين حكايات الاجيال مرددين أخبار الامم والشعوب . وفي أيام الشبيبة سيكون لي الحب مهذباً ، وفي الكهولة عضداً ، وفي الشيخوخة مؤنساً . سيظل الحب معي يا سلمى إلى نهاية العمر ، إلى ان يجيء الموت ، إلى أن تجمعني بك قبضة الله . كانت الالفاظ تتصاعد مسرعة من أعماق نفسي كأنها شعلات من نار تنمو وتتطاير ثم تتبدد وتضمحل في زوايا تلك الحديقة ، وكانت سلمى مصغية والدموع تنهمر من عينيها كأن أجفانها شفاة تخييني بالدموع على الكلام .

ان الذين لم يهبهم الحب أجنحة لا يستطيعون أن يطيروا إلى ما وراء الغيوم ليروا ذلك العالم السحري الذي طافت فيه روحي وروح سلمى في تلك الساعة الم حزنة بأفراحها المفرحة بأوجاعها . ان الذين لم يتخدم الحب أتباعاً لا يسمعون الحب متكلماً ، فهذه الحكاية لم تكتب لهم ؛ فهم وأن فهموا معاني هذه الصفحات الضئيلة لا يمكنهم ان يروا ما

يسيل بين سطورها من الأشباح والأخيلة التي لا قلبس الحبر
ثوباً ولا تتخذ الورق مسكناً . لكن أي بشري لم يرشف من
خمرة الحب في احدى كاساته ؟ أية نفس لم تقف متهبية في
ذلك الهيكل المنير المرصوف بحبات القلوب المسقوف بالأسرار
والاحلام والعواطف ؟ أي زهرة لم يسكب الصباح قطرة من
الندى بين أوراقها ؟ وأي ساقية تفضل طريقها ولا تذهب إلى
البحر ؟

ورفعت سلمى إذ ذاك رأسها نحو السماء المزينة بالكواكب
ومدت يديها إلى الامام وكبرت عينها وارتجفت شفاتها
وظهر على وجهها المصفر كل ما في نفس المرأة المظلومة من
الشكوى والقنوط والألم ، ثم صرخت قائلة : ماذا فعلت
المرأة يا رب فاستعقت غضبك ؟ ماذا أتت من الذنوب ليتبعها
سخطك إلى آخر الدهور ؟ هل اقترفت جرماً لا نهاية لفظاعته
ليكون عقابك لها بغير نهاية ؟ أنت قوي يا رب وهي
ضعيفة فلماذا تبيدها بالأوجاع ؟ انت عظيم وهي تدب حول
عرشك فلماذا تسحقها بقدميك ؟ أنت عاصفة شديدة وهي
كالغبار أمام وجهك فلماذا تذرهما على الثلوج ؟ أنت جبار
وهي بائسة فلماذا تحاربها ؟ أنت بصير عليم وهي قائمة عمياء
فلماذا تهلكها ؟ أنت توجدتها بالهبة فكيف بالهبة تفنيها ؟
بيمينك ترفعها اليك وبشمالك تدفعها إلى الهاوية وهي جاهلة
لا تدري أنتى ترفعها وكيف تدفعها ؟ في فمها تنفخ نسمة الحياة
وفي قلبها تزور بذور الموت . على سبل السعادة تسيرها راجلة

ثم تبعث الشقاء فارساً ليصطادها . في خنجرتها تبث نعمة
 الفرح ثم تغلق شفتيها بالحزن وتربط لسانها بالكآبة بأصابعك
 الخفية تنطق باللذة أو جاعها وبأصابعك الظاهرة ترسم حالات
 الاوجاع حول ملذاتها . في مضجعها تخفي الراحة والسلامة
 ويحانب مضجعها تقيم المخاوف والمتاعب . بإرادتك تحيي
 ميولها . ومن ميولها تتولد عيوبها وزلاتها . بمشيئتك ترهب محاسن
 مخلوقاتك وبمشيئتك تنقلب محبتها للحسن مجاعة مهلكة .
 بشريعتك تزوج روحها من جسد جميل وبقضائك تجعل
 جسدها بعلاً للضعف والهوان . أنت تسقيها الحياة بكأس
 الموت والموت بكأس الحياة . أنت تطهرها بدموعها ويدموعها
 قديبها . أنت تملأ جوفها من خبز الرجل ثم تملأ حفنة الرجل
 من حبات صدرها . أنت أنت يا رب قد فتحت عيني بالهبة
 وبالهبة أعميتني . أنت قبلتني بشفتيك وبيدك القوية صفعتني .
 أنت زرعت في قلبي وردة بيضاء وحول هذه الوردة أنبت
 الاشواك والحسك . أنت أوثقت حاضري بروح فتى أحبه
 ويحسد رجل لا أعرفه . قيدت أيامي فساعدني لأكون قوية
 في هذا الصراع المميت واسعفني لأبقى أمانة وطاهرة حتى
 الموت . . . لتكون مشيتك يا رب . ليكن اسمك مباركاً
 إلى النهاية .

وسكنت سلمى وظلت ملاحها تتكلم ، ثم حنت رأسها
 وأرخت ذراعيها وانخفض هيكلها كأن القوى الحيوية قد تركتها
 فبانَتْ لناظري كغصن قصفته الماصفة وألقته إلى الحضيض

ليجف ويندثر تحت أقدام الدهر . فأخذت يدها المثلجة بيدي
الملتبهة وقبلت أصابعها بأحفاني وشفقي ، ولما حاولت تعزيتها
بالكلام وجدتني أخرى منها بالتعزية والشفقة ، فبقيت صامتاً
حائراً متأملاً شاعراً بتلاعب الدقائق بعواطفي ، مصغياً
لأنّة قلبي في داخلي ، خائفاً من نفسي على نفسي .

ولم ينبس أحداً ببنت شفة في ما بقي من تلك الليلة ، لأن
اللوعة إذا عظمت تصير خرساء ، فبقينا ساكتين جامدين
كعمودي رخام قهرهما الزلزال في التراب . ولم يعد أحداً يريد
أن يسمع الآخر متكلاً ، لأن خيوط قلبينا قد وهدت حتى
صار التنهد دون الكلام يقطعها .

انتصف الليل ونمت رهبة السكوت وطلع القمر ناقصاً من
وراء صنين وبان بين النجوم كوجه ميت شاحب غارق في
المساند السوداء بين شموع ضئيلة تحيط بنمشه . وظهر لبنان
كشيخ لوت ظهره الأعوام وأناخت هيكلة الأحزان وهجر
أجفانه الرقاد فبات يساهر الدجى ويترقب الفجر كملك مخلوع
جالس على رماد عرشه بين خرائب قصره . ان الجبال
والأشجار والأنهار تبدل هيئاتها ومظاهرها بتقلب الحالات
والأزمئة مثلما تتغير ملامح وجه الانسان بتغير أفكاره
وعواطفه ، فشجرة الحور التي تتعالى في النهار كمروس جميلة
يلعب النسيم أوتابها تظهر في المساء كعمود دخان يتصاعد نحو
اللاشيء والصخر الكبير الذي يجلس عند الظهيرة كجبار قوي
يهزأ بعاديات الزمن يبدو في الليل كفقير بائس يفرش الثرى

ويلتحف الفضاء . والساقية التي نراها عند الصباح متلمعة
كذوب الثلج ونسمعها مترنمة بأغنية الخلود نخلها في المساء
يجرى دموع يتفجر من بين أضلع الوادي ونسمعها تندب
وتنوح كالشكلى . ولبنان الذي ظهر منذ اسبوع بكل مظاهر
الجلال والرونى عندما كان القمر بدرأ والنفس راضية قد بان
في تلك الليلة كئيباً منهوكة مستوحشاً أمام قر ضليل ناقص
هائم في عرض السماء . وقلب خافق معتل في داخل الصدر .
وقفنا للوداع وقد وقف بيننا الحب واليأس شبحين هائلين ،
هذا باسط جناحيه فوق رأسينا وذاك قابض بأظافره على
عنقينا . هذا يبكي مرثعاً وذاك يضحك ساخرأ . ولما أخذت
يد سلمى ووضعتهما على شفتي متبركا دنت مني ولثمت مفرق
شعري ، ثم عادت فارتمت على المقعد الحشى وأطبقت أجفانها
ومست ببطمه ؛ اشفق يا رب وشدد جميع الأجنحة المتكسرة .
انفصلت عن سلمى وخرجت من تلك الحديقة شاعراً
بنقاب كثيف يوشي مداركي الحسية مثلما يغمر الضباب وجه
البحيرة . وسرت وأخيلة الاشجار القائمة على جانبي الطريق
تتحرك أمامي كأنها أشباح قد انبثقت من شقوق الأرض
لتخيفني ، وأشعة القمر الضعيفة ترتعش بين الغصون كأنها سهام
دقيقة تريشها أرواح الجان السابحة بالفضاء نحو صدري ،
والسكينة العميقة تخيم على كأنها أكف سوداء ثقيلة القتها الظلمة
على جسدي .

كل ما في الوجود وكل معنى في الحياة وكل سر في النفس

قد صار قبيحاً رهيباً هاللاً ، فالنور المعنوي الذي أرايني جمال
العالم وبهجة الكائنات قد انقلب نارا تحرق كبدي بلهبها
وتستر نفسي بدخانها ، والنغمة التي كانت تضم إليها أصوات
المخلوقات وتجعلها نشيد علويًا قد استحالت في تلك الساعة الى
ضجيج أروع من زججرة لأسد وأعمق من صراخ الهاوية .

بلغت غرقتي وارتمت على فراشي كطائر رماه الصياد فسقط
بين السياج والسهم في قلبه . وظلت عاقلتي تراوح بين يقظة
خفيفة ونوم مزعج ، وروحي في داخلي تردد في الحالتين كلمات
سلمى : أشفق يا رب وشدد جميع الاجنحة المتكسرة .

أمسام عرش الموت

•

إنما الزيجة في أيامنا هذه . تجارة مضحكة مبكية يتولى
أمورها الفتيان وآباء الصبايا ، الفتيان يربحون في أكثر
المواطن والآباء يخسرون دائماً ، أما الصبايا المنتقلات كالسلع
من منزل إلى آخر فتزول بهجتهن ، ونظير الأمتعة العتيقة
يصير نصيبهن زوايا المنازل حيث الظلمة والفناء البطيء .

إن المدنية الحاضرة قد أنمت مدارك المرأة قليلا ولكنها
أكثرت أوجاعها بشعيم مطامع الرجل . كانت المرأة بالأمس
خادمة سعيدة فصارت اليوم سيدة قسوة . كانت بالأمس عمياء
تسير في نور النهار فأصبحت مبصرة تسير في ظلمة الليل .
كانت جميلة يحلها فاضلة ببساطتها قوية بضعفها فصارت قبيحة
بتفننها سطحية بمداركها بعيدة عن القلب بمعارفها . فهل يجيء
يوم يجتمع في المرأة الجمال بالمعرفة ، والتفنن بالفضيلة ، وضعف
الجسد بقوة النفس ؟ أنا من القائلين ان الارتقاء الروحي سنة
في البشر ، والتقرب من الكمال شريعة بطيئة لكنها فعالة
فإذا كانت المرأة قد ارتقت بشيء وتأخرت بشيء آخر فلا تأن
العقبات التي تبلغنا قمة الجبل لا تخلو من مكامن اللصوص .

وكهوف الذئاب . ففي هذا الجبل الشبيه بالغيوبة التي تتقدم اليقظة — في هذا الجبل القابض بكفيه على تراب الاجيال الغابرة وبزور الاجيال الآتية — في هذا الجبل الغريب بميله وأمانيه لا تخلو مدينة من امرأة ترمز بوجودها عن ابنة المستقبل . وسلمى كرامه كانت في بيروت رمز المرأة الشرقية العتيقة ، ولكنها كالكثيرين الذين يعيشون قبل زمانهم قد ذهبت ضحية الزمن الحاضر ، ونظير زهرة اختطفها تيار النهر قد صارت قهراً في موكب الحياة نحو الشقاء .

وتزوج منصور بك غالب من سلمى فسكنامعاً في منزل فخم قائم على شاطئ البحر في رأس بيروت حيث يقطن وجهاء القوم والاعنياء وبقي فارس كرامه وحده في ذلك البيت المنفرد بين الحدائق والبساتين انفراد الراعي بين أغنامه ومضت أيام العرس وانقضت ليالي الأفراح ، ومر الشهر الذي يدغوه الناس عسلاً تاركاً وراءه شهور الخل والعلقم مثلما قترك أمجاد الحروب جهاجم القتلى في البرية البعيدة ... ان بهرجة الاعراس الشرقية تصعد بنفوس الفتيان والصبايا صعود النسر الى ما وراء الغيوم ثم تهبط بهم هبوط حجر الرخى الى اعماق اليم ، بل هي مثل آثار الأقدام على رمال الشاطئ لا تلبث أن تمحوها الأمواج .

وذهب الربيع وتلاه الصيف وجاء الخريف ومحبي سلمى تتدرج من شغف فتى في صباح العمر بامرأة حسناء إلى نوع من تلك العبادة الخرساء التي يشعر بها الصبي اليتيم نحو

روح أمه الساكنة في الأبدية ، فالصباية التي كانت تمتلك كليتي قد تحولت إلى كآبة عمياء لا ترى غير نفسها ، والولع الذي كان يستدر الدموع من عيني قد انقلب ولها يستقطر الدم من قلبي ، وأنة الحنين التي كانت تملأ ضلوعي أصبحت صلاة عميقة تقدمها روحي في السكينة أمام السماء مستمدة السعادة لسمي والغبطة لبعليها والطمأنينة لوالدها ، ولكن باطلا كنت أشفق وابتهل وأصلي لأن تعاسة سلمي كانت علة في داخل النفس لا يشفيها سوى الموت . أما بعثها فكان من أولئك الرجال الذين يحصلون بغير تعب على كل ما يجعل الحياة هنيئة ولا يقنمون بل يطمحون دائما إلى ما ليس لهم ، وهكذا يظنون معذبين بمطامعهم إلى نهاية أيامهم . وباطلا كنت أرجو الطمأنينة لفارس كرامه لأن صهره لم يستلم يد ابنته ويحصل على أموالها الطائلة حتى نسيه وهجره بل صار يطلب حقه توصلا إلى ما بقي من ثروته .

كان منصور بك شبيهاً بعمه المطران بولس غالب ، وكانت أخلاقه كأخلاقه ، ونفسه صورة مصفرة لنفسه ، ولم يكن الفرق بينهما إلا بما يفرق الرياء عن الانحطاط . كان المطران يبلغ أمانيه مستتراً بأثوابه البنفسجية ويشبع مطامعه محتئماً بالصليب الذهبي المعلق على صدره ، أما ابن أخيه فكان يفعل كل ذلك جهاراً وعنوة . كان المطران يذهب إلى الكنيسة في الصباح ويصرف ما بقي من النهار منتزعاً الأموال من الأراامل

واليتامى وبسطاء القلب ، أما منصور بك فكان يقضي النهار كله متبعاً ملذاته ملاحقاً شهواته في تلك الأزقة المظلمة حيث يختبر الهواء بأنفاس الفساد .

كان المطران يقف يوم الأحد أمام المذبح ويعظ المؤمنين بما لا يتعظ به ويصرف أيام الأسبوع مشغولاً بسياسة البلاد ، أما ابن أخيه فكان يصرف جميع أيامه متاجراً بنفوذ عمه بين طالبي الوظائف ومريدي الوجاهة . كان المطران لصاً يسير مخبئاً بستائر الليل ، أما منصور بك فكان محتالاً يمشي بشجاعة في نور النهار .

كذا تبيد الشعوب بين اللصوص والمحتالين مثلما تفنى القطمان بين أنياب الذئاب وقواطع الجزارين ، وهكذا تستسلم الأمم الشرقية إلى ذوي النفوس المعوجة والأخلاق الفاسدة فتتراجع إلى الوراء ثم تهبط إلى الحضيض فيمر الدهر ويسحقها بأقدامه مثلما تسحق مطارق الحديد آنية الفخار .

وماذا يا ترى يجعلني الآن أشغل هذه الصفحات بالكلام عن أمم بائسة بائسة وأنا قد خصصتها لتدوين حكاية امرأة ناعسة وتصوير خيالات قلب وجيع لم يلبسه الحب بأفراحه حتى صفعه بأحزانه ؟ .. لماذا تراود الدموع أجفائي لذكرى شعوب خاملة مظلومة وأنا قد وقفت دموعي على ذكرى أليم امرأة ضعيفة لم تعانق الحياة حتى احتضنها الموت ،

ولكن أليست المرأة الضعيفة هي رمز الأمة المظلومة ؟
 أليست المرأة المتوجعة بين ميول نفسها وقيود جسدها هي
 كالأمة المتعذبة بين حكامها وكهانها ؟ أو ليست العواطف
 الخفية التي تذهب بالصبية الجميلة الى ظلمة القبر هي كالعواصف
 الشديدة التي تغمر حياة الشعوب بالتراب ؟ ان المرأة من الأمة
 بمنزلة الشماع من السراج ، وهل يكون شعاع السراج ضئيلاً
 اذا لم يكن زيتُه شحيحاً ؟

* * *

مضت ايام الخريف وعرت الرياح الأشجار متلاعببة
 بأوراقها الصفراء مثلما تداعب الأنواء زبد البحر ، وجاء
 الشتاء باكياً منتحباً وأنا في بيروت ولا رفيق لي سوى أحلام
 تتصاعد بنفسي قارة فتبلغها الكواكب ، وتنخفض بقلي طوراً
 فتلمحده يحوف الأرض .

ان النفس الكثيرة تجد راحة بالعزلة والانفراد فتتهجر الناس
 مثلما يبتعد الغزال الجريح عن سربه ويتوارى في كهفه حق
 يبرأ او يموت .

ف ذات يوم سمعت باعتلال فارس كرامه ، فتركت وحدتي
 وذهبت لميادته ماشياً على ممر منفرد بين أشجار الزيتون
 المتلحمة اوراقها الرصاصية بقطرات المطر ، متنحياً عن الطريق
 العمومية حيث تزعج ضجة المركبات سكينه الفضاء .

الاجنحة المتكسرة (٥)

بلغت منزل الشيخ ودخلت عليه فوجدته ملقى على فراشه مضى الجسم ، شاحب الوجه ، أصفر اللون ، قد غرقت عيناه تحت حاجبيه فبانتا كهوتين عميقتين مظلمتين تجول فيها أشباح السقم والألم ، فاللامح التي كانت بالأمس عنوان البشاشة والانبساط قد تقلصت واكفهرت واصبحت كصحيفة رمادية متجمدة تكتب عليها العلة سطوراً عربية ملتبسة . واليدان اللتان كانتا مغلفتين باللفظ واللدانة قد نحللتا حتى بدت عظام اصابعها من تحت الجلد كقضبان عارية ترتعش أمام العاصفة .

ولما دنوت منه سائلا عن حاله حول وجهه المهزول نحوي وظهر على شفتيه المرتجفتين خيال ابتسامة محزنة ، وبصوت ضعيف خافت خلته آتيا من وراء الجدران قال : اذهب ، اذهب يا ابني الى تلك الغرفة وامسح دموع سلمي وسكن روعها ثم عد بها إلي لتجلس بجانب فراشي . . .

دخلت الغرفة المحاذية فوجدت سلمي منطرفة على مقعد وقد غمرت رأسها بزنديها وغرقت وجهها بالمساند وأمسكت أنفاسها كيلا يسمع والدها نحيبها . فاقتربت منها ببطء ولفظت اسمها بصوت أقرب الى التنهد منه الى الهمس ، فتعركت مضطربة كنائم تراوده الأحلام الخيفة ثم استوت على مقعدها ونظرت إلي بعينين شاخصتين جامدتين كأنها ترى شعبا في عالم الرؤيا ولا تصدق حقيقة وجودي في ذلك المكان .

وبعد سكوت عميق أرجعنا بتأثيراته السحرية الى تلك الساعات التي سكرنا فيها من خمرة الآلهة مسحت سلمى دموعها بأطراف اناملها وقالت متحسرة : أرأيت كيف تبدلت الأيام ؟ أرأيت كيف أضلنا الدهر فسرنا مسرعين الى هذه الكهوف المفزعة ؟ في هذا المكان جمعنا الربيع في قبضة الحب ، وفي هذا المكان يجمعنا الآن الشتاء امام عرش الموت ، فما أبهى ذلك النهار وما أشد ظلمة هذا الليل .

قالت هذه الكلمات وقد ابتلعت الغصات وأواخرها ثم عادت فسترت وجهها بيديها كأن ذكرى الماضي قد تجسدت ووقفت أمامها فلم تشأ ان تراها . فوضعت يدي على شعرها قائلاً : تعالي يا سلمى ، تعالي ننتصب لآل ابراج أمام الزوينة . هلمي نقف كالجنود أمام الأعداء متلقين شفار السيوف بصدورنا لا بظهورنا ، فان صرعنا نموت كالشهداء وان تغلبنا نعيش كالأبطال . . . ان عذاب النفس بثباتها امام المصاعب والمتاعب هو اشرف من تقهقرها الى حيث الامن والطمأنينة . فالفراسة التي تظل مرفرفة حول السراج حتى تحترق هي أسهى من الخلد الذي يعمش براحة وسلامة في نفقه المظلم . والنواة التي لا تحتل برد الشتاء وثورات العناصر لا تقوى على شق الأرض ولن تفرح بحال نيسان . . . هلمي نسريا سلمى بقدم ثابتة على هذه الطريق الوعرة . رافعين اعيننا نحو الشمس كيلا نرى الجماجم المطروحة بين الصخور ، والافاعي المنسابة بين الاشواك ، فان اوقفنا الخوف في منتصف الطريق

أسمعنا أشباح الليل صراخ الاستهزاء والسخرية ، وإن بلغنا
قمة الجبل بشجاعة تترنم معنا ارواح الفضاء بالنشودة النصر
والاستظهار . . . خففي عنك يا سلمى وجففي دموعك
واخفي هذه الكآبة الظاهرة على محياك وقومي لمجلس يجانب
فراش والدك لان حياته من حياقتك وشفاءه بابتسامك .

فنظرت إلي نظرة ملؤها الحنان والرافة والانعطاف ثم
قالت : أتطلب مني الصبر والتجلد وفي عينيك معنى اليأس
والقنوط ؟ أعطي الفقير الجائع خبزه للجائع الفقير ؟ أو يصف
العليل دواء لعليل آخر وهو أخرى بالدواء ؟

ثم وقفت وسارت أمامي منحنية الرأس الى غرفة والدها .
جلسنا بقرب مضجع الشيخ العليل وسلمى تتكلف الابتسام
وهدهوء البال وهو يتكلف الراحة والقوة ، وكل منها شاعر
بلوعة الآخر ، عالم بضعفه ، سامع غصات قلبه ، فكانا مثل
قوتين متضارعتين يفني بعضها بعضاً في السكينة . والد دنف
يدوب ضنى لتعاسة ابنته ، وابنة محبة تذبل متوجعة بعلة
والدها . نفس راحلة ونفس يائسة تتعاقبان أمام الحب والموت ،
وأنا بينهما أتحمل ما بي وأقاسي ما بهما . ثلاثة جمعتهم يد القضاء
ثم قبضت عليهم بشدة حتى سحقتهم : شيخ يثقل بيتاً قديماً هدمه
الطوفان ، وصبية تحاكي زنبقة قطع عنقها حشد المنجل ،
وفقى يشابه غرسة ضعيفة لوت قامتها الثلوج ، وجميعنا مثل
العوبة بين أصابع الدهر .

وتحرك الشيخ إذ ذاك بين اللحف ومد يده النحيلة نحو
سلى ، وبصوت أودعه كل ما في قلب الأب من الرقة والرأفة
وكل ما في الصدر العليل من السقم والألم قال : ضمي يدك في
يدي يا سلى .

فدنت يدها وألقتها بين أصابعه فضمها بلطف ثم زاد
قائلاً : لقد شبعنا من السنين يا ولدي ، قد عشت طويلاً
وتلذذت بكل ما تثمره الفصول وتمتعت بكل ما تبرزه الأيام
والليالي ، قد لاحقت الفراش صبيّاً وعانقت الحب فتى
وجمعت المال كهلاً ، وكنت في جميع هذه الأدوار سعيداً
مغتبطاً . فقدت أمك يا سلى قبل ان تبغني الثالثة ولكنها
أبقتك لي كنزاً ثميناً ، فكنت تنمين بسرعة نمو الهلال
وتنعكس على وجهك ملامح أمك مثلما تنعكس أشعة النجوم
في حوض ماء هادئ ، وتظهر أخلاقها ومزاياها بأعمالك
وأقوالك ظهور الحلى الذهبية من وراء النقاب الرقيق ،
فتعزيت بك يا ولدي لأنك كنت مثلها جميلة وحكيمة . . .
والآن قد صرت شيخاً طاعناً وراحة الشيوخ بين أجنحة
الموت الناعمة ، فتعزي يا ولدي لأنني بقيت لأراك امرأة كاملة ،
وافرحي لأنني سأبقى بك حياً بعد موتي . إن ذهابي الآن هو
مثل ذهابي غداً أو بعده ، لأن إيماننا مثل أوراق الخريف
تتساقط وتلبدد امام وجه الشمس فان أسرع في الساعات
إلى الأبدية فلأنها علمت ان روحي قد اشتاقت الى لقاء أمك .

لفظ الكلمات الأخيرة بنغمة مفعمة بحلاوة الحنين والرجاء
ولاحت على وجهه المنقبض أشعة شبيهة بذلك النور الذي
ينبثق من أجفان الأطفال ، ثم مد يده بين المساند المحيطة
برأسه وانتشل صورة صغيرة قديمة ينطقها إطار من الذهب
قد نعمت حدوده ملامس الأيدي ومحت نقوشه قبل الشفاه ،
ثم قال دون ان يحول عينيه عن الرسم : اقتربي ياسلمى ،
اقتربي مني يا ولدي لأريك خيال أمك . تعالي وانظري ظلها
على صفحة من الورق .

فدنت سلمى ماسحة الدموع من مقلتيها كيلا تحول بين
ناظرها والرسم الضئيل ، وبعد ان حدثت اليه طويلا كأنه
مرآة تعكس معانيها وشكل وجهها قربته من شفيتها وقبلته
بلهفة مراراً متوالية ثم صرخت قائلة : يا أماء . يا أماء .
يا أماء ! ولم تزد على هذه الكلمة بل عادت فوضعت الرسم
على شفيتها المرتعشتين كأنها تريد ان تثبت فيه الحياة بأنفاسها
الحارة ...

ان أعذب ما تحدثه الشفاه البشرية هو لفظة « الأم » ،
وأجمل مناداة هي : يا أمي . كلمة صغيرة كبيرة مملوءة
بالأمل والحب والانعطاف وكل ما في القلب البشري من الرقة
والحلاوة والمذوبة . الأم هي كل شيء في هذه الحياة ، هي
التعزية في الحزن ، والرجاء في اليأس ، والقوة في الضعف
هي ينبوع الحنو والرافة والشفقة والغفران ، فالذي يفقد

أمه يفقد صدرأ يسند اليه رأسه ويدأ تباركه وعينا
تخرسه ...

كل شيء في الطبيعة يرمز ويتكلم عن الامومة ، فالشمس
هي أم هذه الأرض ترضعها حرارتها وتحتضنها بنورها ولا
تغادرها عند المساء إلا بعد ان تنومها على نعمة أمواج البحر
وترنيمة العصفير والسواقي ، وهذه الأرض هي ام للأشجار
والأزهار تلدّها وترضعها ثم تقطعها . والأشجار والأزهار
تصير بدورها أمهات حنونات للأثمار الشبية والبزور الحية .
وأم كل شيء في الكيان هي الروح الكلية الأزلية الأبدية
المملوءة بالجمال والمحبة .

وسلى كرامه لم تكن تعرف امها لأنها ماتت وهي طفلة ،
وقد شقت متأثرة عندما رأت رسمها ونادتها : يا أماه ، فسر
إرادتها ، لأن لفظة الأم تختبئ في قلوبنا مثلما تختبئ النواة
في قلب الأرض ، وتنبثق من بين شفاها في ساعات الحزن
والفرح كما يتصاعد العطر من قلب الورد في الفضاء الصافي
والمطر .

كانت سلى تحدد الى رسم أمها ثم تقبله بلهفة ثم تلاذه إلى
صدرها الحفوق ثم تتأوه متنهدة ومع كل تنهدة تفقد جزءاً من
قواها ، حتى إذا ما وهت الحياة في جسدها النحيل هوت
وسقطت بجانب سرير أبيها ، فوضع كلنا يديه على رأسها
قائلا : قد أريتك يا ولدي شبح أمك على صفحة من الورق ،
فاصفي إلي لأسمعك أقوالها .

فرفعت سلمى رأسها مثلما تفعل الفراخ في العش عندما تسمع حفيف أجنحة العصفورة بين القضبان ، ونظرت اليه مصغية صاغرة كأن ذاتها المعنوية قد استحالت الى أعين محدقة وآذان واعية .

فقال والدها : كنت طفلة رضيعة عندما فقدت أمك والدها الشيخ فحزنت لفقده وبكت بسكاء حكيم متجلد ، ولكنها لم تعد من جانب قبره حتى جلست يجانبي في هذه الغرفة وأخذت يدي براحتها وقالت : قد مات والدي يا فارس وأنت باقى لي وهذه هي تعزيتي . ان القلب بمواطفه المتشعبة يماثل الارزة بأغصانها المتفرقة ، فإذا ما فقدت شجرة الأرض غصناً قوياً تتألم ولكنها لا تموت بل تحول قواها الحيوية الى الغصن المجاور لينمو ويتعالى ويملأ بفروعه الغضة مكان الغصن المقطوع . هذا ما قالت والدتك يا سلمى عندما مات أبوها وهذا ما يجب عليك ان تقوليهِ عندما يأخذ الموت جسدي الى راحة القبر وروحي الى ظل الله .

فأجابت سلمى متفجعة : فقدت أمي والدها فبقيت أنت لها ، فمن يبقى لي إذا فقدتك يا والدي ؟ مات والدها وهي في ظلال زوج محب فاضل أمين ، مات والدها فبقي لها طفلة تغمر رأسها الصنير بشديها وتطوق عنقها بذراعيها ، فمن يبقى لي إذا فقدتك يا والدي ؟ أنت أبي وأمي ورفيق حداثتي ومهذب شيبتي ، فمن أستعوض إذا ما ذهب عني ؟ .

قالت هذا وحولت عينها الدامعتين نحوي وأمسكت
 بيمينها طرف ثوبي ثم قالت : ليس لي غير هذا الصديق يا
 والدي ولن يبقى لي سواء إذا ما تركتني ، فهل أتعزى به
 وهو متعذب مثلي ؟ هل يتعزى كسير القلب بالقلب الكسير ؟
 ان الحزينة لا تتصبر بحزن جارتها كما ان الحمامة لا تطير بأجنحة
 مكسورة . هو رفيق لنفسي ولكنني قد أثقلت عاتقه
 بأشجائي حتى لويت ظهره وسملت عينيه بعبراتي فلم يعد يرى
 غير الظلمة . هو أخ أحبه ويحبني ولكنه مثل جميع الأخوة
 يشترك بالمصيبة ولا يخففها ، ويساعد بالبكاء فيزيد الدمع مرارة
 والقلب احتراقاً .

كنت اسمع سلى متكلمة وعواطفي تنمو وصدري يضيق
 حتى شعرت بأن أضلعي تكاد تتفجر حناجر وفوهات ، أما
 الشيخ فكان ينظر اليها وجسده المهزول يهبط ببطء بين الوسائد
 والمسائد ، ونفسه المتعبة ترتجف كشعلة السراج امام الريح ،
 ثم بسط ذراعيه وقال يهدوء : دعيني أذهب بسلام يا ولدي ،
 لقد لمحت عيناى ما وراء الغيوم ، فلن أحولها نحو هذه
 الكهوف . دعيني أطيّر فقد كسرت بأجنحتي قضبان هذا
 القفص ... قد نادتني أمك يا سلى فلا توقفي ... ها قد
 طابت الريح وتبدد الضباب عن وجه البحر فرفعت السفينة
 ثراعا وتأهبت للسير فلا توقفيها ولا تنزعي دفتها . دعي
 جسدي يرقد مع الذين رقدوا ودعي روحي تستيقظ لأن الفجر
 قد لاح والحلم قد انتهى ... قبلي روحي بروحك ... قبليني

قبلة رجاء وأمل ولا تسكي قطرة من مرارة الحزن على جسدي
لثلاث تمنع الاعشاب والازهار عن امتصاص عناصره . ولا
تذرفي دموع اليأس على يدي لأنها تنبت شوكا على قبري . ولا
ترسمي بزفرات الامى سطرأ على جبهتي لأن نسيم السحر يمر
ويقرأه فلا يحمل غبار عظامي الى المروج الخضراء .. قد
أحببتك بالحياة يا ولدي وسوف أحبك بالموت فتظل روحي
قريبة منك لتحبيك وترعاك .

والتفت الشيخ إلي وقد انطبقت أجفانه قليلا فلم أعد أرى
سوى خطين رماديين مكان عينيه ، ثم قال وسكينة الفناء
تسترق ألفاظه : أما أنت يا ابني فكن أخا لسلى مثلا كان
والدك لي . كن قريبا منها في ساعات الشدة ، وكن صديقا
لها حتى النهاية ، ولا تدعها تحزن لأن الحزن على الاموات غلطة
من أغلاط الأجيال الفاسدة . بل اتلُ على مسممها أحاديث
الفرح وأنشدها أغاني الحياة فتسلو وتتناسى ... قل لأبيك أن
يذكرني ، سله فيخبرك عن مآتي أيامي عندما كان الشباب
يخلق بنا إلى الغيوم .. قل له انني احببته بشخص ابنه في
آخر ساعة من حياتي ...

وسكت دقيقة وظلت أشباح ألفاظه تدب على جذبان
الفرقة ، ثم عاد فنظر إلي وإلى سلى بوقت واحد وقال
همسا : لا تدعوا طبيبا لي يطيل بمساحيقه ساعات سجنى لان
أيام العبودية قد مضت فطلبت روحي حرية الفضاء . ولا

تدعوا كاهناً إلى جانب فراشي لأن تعازيه لا تكفر عن
ذنوبي ان كنت خاطئاً ، ولا تسرع بي الى الجنة ان كنت
بارئاً . ان ارادة البشر لا تغير مشيئة الله كما ان المجسمين لا
يحولون مسير النجوم . اما بعد موتي فليعمل الأطباء والكهان
ما شاؤوا ، فاللجة تنادي اللجة اما السفينة فتظل سائرة
حق تبلغ الساحل ...

* * *

عندما انتصف ذلك الليل الخفيف فتح فارس كرامه عينيه
الغارتين في ظلمة التزع ، فتحبها لآخر مرة ، وحولها نحو
ابنته الجائية بجانب مضجعه ، ثم حاول الكلام فلم يستطع
لأن الموت كان قد تشرب صوته فخرجت هذه الألفاظ لهاثاً
عميقاً من بين شفتيه : ها قد ذهب الليل ... وجاء الصباح ...
يا سلمي . يا . يا سلمي ...

ثم نكس رأسه وابيض وجهه وابلمست شفثاه وأسلم
الروح .

ومدت سلمي يدها ولمست يد والدها فوجدتها باردة
كالثلج ، قرفعت رأسها ونظرت اليه فرأت وجهه مبرقعا
بنقاب الموت ، فجمدت الحياة في جسدها وجفت الدموع في
محاجرها ، فلم تتحرك ولم تصرخ ولم تتأوه ، بل بقيت محدقة
اليه بعينين جامدتين كعيني التمثال ، ثم تراخت أعضاؤها مثلما
تراخي طيات الثوب البليل ، وهبطت حتى لمست جبهتها

الارض ، ثم قالت يهدوء: اشفق يا رب وشدد جميع الاجنحة المتكسرة .

* * *

هات فارس كرامه وعانقت الابدية روحه واسترجع التراب جسده ، واستولى منصور بك على أمواله وظلت ابنته أسيرة تعاستها ترى الحياة مأساة هائلة تمثلها الخواف أمام عينيها .

أما أنا فكنت ضائعاً بين أحلامي وهواجسي ، تلتابني الأيام والليالي مثلما تلتاب النور والعقبان لمان الفرنسية . فكم حاولت أن أفقد ذاتي بين صفحات الكتب لعلمي استانس بأخيلة الذين طوامم الدهر ، وكم جربت أن أنسى حاضري لأعود بقراءة الاسفار إلى مسارح الأجيال الفائرة ، فلم يحدني كل ذلك نفعاً بل كنت كمن يحاول اخمد النار بالزيت ، لأنني لم أكن أرى من مواكب الاجيال سوى اشباحها السوداء ، ولا أسمع من أنغام الأمم غير الندب والنواح ، فسر ايوب كان عندي أجمل من مزامير داود ، ومراثي ارميا كانت أحب لدي من نشيد سليمان ، ونكبة البرامكة أشد وقعاً في نفسي من عظمة العباسيين ، وقصيدة ابن زريق أكثر تأثيراً من رباعيات الخيام ، ورواية هملت أقرب الى قلبي من كل ما كتبه الافرنج .

كذا يضعف القنوط بصيرتنا فلا نرى غير أشباحنا الرهيبة ، وهكذا يصم اليأس آذاننا فلا نسمع غير طرقات قلوبنا المضطربة .

بين عشتروت والمسيح



بين تلك البساتين والتلول التي تصل أطراف بيروت بأذيال
لبنان يوجد معبد صغير قديم العهد محفور في قلب صخرة
بيضاء قائمة بين أشجار الزيتون واللوز والصفصاف . ومع ان
هذا المعبد لا يبعد أكثر من نصف ميل عن طريق المركبات
فقد قل من عرفه من محبي الآثار والخرائب القديمة ، فهو مثل
أشياء كثيرة خطيرة في سوريا تختبئ وراء ستائر الاممال ،
فكأن الاممال قد أبقاء محجوباً عن عيون الأثريين ليجملة خلوة
لنفوس المتعبين ومزاراً للمحبين المستوحشين .

والداخل الى هذا المعبد العجيب يرى على الجدار الشرقي
منه صورة فينيقية الشواهد والبيئات محفورة في الصخر قد
محت أصابع الدهر بعض خطوطها ولونت الفصول معالمها ،
وهي تمثل عشتروت ربة الحب والجمال جالسة على عرش
فخيم ومن حولها سبع عذارى عاريات واقفات بيهيات
مختلفة ، فالواحدة منهن تحمل مشعلاً والثانية قيثاراً والثالثة
مبشرة والرابعة جرة من الخمر والخامسة غصناً من الورد

والسادسة إكليلاً من الغار والسابعة قوساً وسهاماً ، وجميعهن ناظرات الى عثرتوت وعلى وجوههن سماء الخضوع والامثال . وعلى الجدار الثاني صورة أخرى أحدث عهداً وأكثر ظهوراً تمثل يسوع الناصري مصلوباً والى جانبه أمه الحزينة ومريم المجدلية وامرأتان ثانيتان تلتحبان . وهذه الصورة البيزنطية الأسلوب والقرائن تدل على كونها حفرت في القرن الخامس او السادس للمسيح .

وفي الجدار الغربي كوفات مستديرتان يدخل منها شعاع الشمس عند أصيل النهار وينسكب على الصورتين فتظهران كأنهما قد طليتا بماء الذهب .

وفي وسط المعبد حجر من الرخام مربع الشكل على جوانبه نقوش ووسامات قديمة الطراز قد انحجب بعضها تحت كتلات متحجزة من الدماء تدل على أن الأقدمين كانوا ينحرون ذبائحهم على هذا الحجر ويصبون فوقه قرايين الخمر والعطر والزيت .

ولم يكن في هذا المعبد الصغير شيء آخر سوى سكينه عميقة تعانق النفس وهيبه سحرية تبليح بتموجاتها أسرار الآلهة وتتكلم بلا نطق عن مآتي الأجيال الغابرة ومسير الشعوب من حالة الى حالة ومن دين الى دين ، وتستميل الشاعر الى عالم بعيد عن هذا العالم ، وتقنع الفيلسوف بأن الانسان مخلوق دين يشعر بما لا يراه ويتخيل ما لا تقع عليه حواسه ، فيرسم لشعوره رموزاً تدل بمعانيها على خفايا نفسا

ويجسم خياله بالكلام والانفسام والضور والتأثيل التي تظهر بأشكالها أقدس ميوله في الحياة واجمل مشتهياته بعد الموت .

في هذا الهيكل المجهول كنت ألتقي سلمى كرامه مرة في الشهر فنصرف الساعات الطوال ناظرين إلى الصورتين الغريبتين مفكرين بفق الأجيال المصلوب فوق الجلجلة مستحضرين إلى غيبتينا أشباح الفتيات والصبايا الفيلقيين الذين عاشوا وعشقوا وعبدوا الجمال بشخص عشرت فحرقوا البخور امام تماثيلها وهرقوا الطيوب على مذابحها ثم طوتهم الارض فلم يبق منهم سوى اسم تردده الأيام أمام وجه الأبدية .

كم يصعب علي الآن ان أدون بالكلام ذكرى تلك الساعات التي كانت تجمعني بسلمى ، تلك الساعات العلوية المكتنفة باللذة والألم ، والفرح والحزن ، والأمل والياس ، وكل ما يجمل الانسان انساناً والحياة لغزاً ابدياً . ولكن كم يصعب علي أن أذكرها ولا أرسم بالكلام الضئيل خيالاً من أخيلتها ليبقى مثلاً لأبناء الحب والكآبة .

كنا نختلي في ذلك الهيكل القديم فنجلس في بابيه سائدين ظهرينا إلى جداره مرددين صدى ماضينا مستقصين ما في حاضرنا خائفين مستقبلا . ثم نترج إلى اظهار ما في أعماق نفسيينا فيشكو كل منا لوعته وحرقة قلبه وما يقاسيه من الجزع والحسرة ، ثم يصبر واحدنا الآخر بإسطاً أمامه كل ما في جيوب الأمل من الأوهام المفرحة والأحلام العذبة ، فيهدأ

روعنا وتجف دموعنا وتنفرج ملاحنا ، ثم نبسم متناسين كل شيء سوى الحب وافراحه ، منصرفين عن كل أمر إلا النفس وميولها ، ثم نتعاقق فنذوب شغفاً وهيماً ، ثم تقبل سلمى مفرق شعري بطهر وانعطاف فتملأ قلبي شعاعاً ، وأقبل أطراف اصابعها البيضاء فتغض عينيها وتلوي عنقها العاجي وتتورد وجنتاهما باحمرار لطيف يشابه الأشعة الأولى التي يلقيها الفجر على جباه الروابي . ثم نسكت وننظر طويلاً نحو الشفق البعيد حيث الغيوم المتلونة بأنوار المغرب البرتقالية .

ولم تكن اجتماعاتنا مقتصرة على مبادلة العواطف وبث الشكوى ، بل كنا ننقل على غير معرفة منا الى العموميات فتبادل الآراء والأفكار في شؤون هذا العالم الغريب وتباحث في مرامي الكتب التي كنا نقرأها ذاكرين حسناتها وسيئاتها وما تنظوي عليه من الصور الخيالية والمبادئ الاجتماعية ، فتتكلم سلمى عن منزلة المرأة في الجامعة البشرية وعن تأثير الأجيال الغابرة في أخلاقها وميولها وعن العلاقة الزوجية في أيامنا هذه وما يحيط بها من الأمراض والمفاسد . واني أذكر قولها مرة : ان الكتاب والشعراء يحاولون إدراك حقيقة المرأة ولكنهم لأن لم يفهموا اسرار قلبها وخبآت صدرها لأنهم ينظرون اليها من وراء نقاب الشهوات فلا يرون غير خطوط جسدها أو يضعونها تحت مكبرات الكره فلا يجدون فيها غير الضعف والاستسلام .

وقولها لي مرة أخرى وقد أشارت بيدها إلى الرسامين
المحفورين على جدران الهيكل : في قلب هذه الصخرة قد
نقشت الأجيال ومزين يظهران خلاصة ميول المرأة ويستجيبان
غوامض نفسها المراوحة بين الحب والحزن ، بين الانعطاف
والتضحية ، بين عشقوت الجالسة على العرش ومريم الواقفة
أمام الصليب ... ان الرجل يشترى المجد والعظمة والشهرة
ولكن هي المرأة التي تدفع الثمن .

ولم يدر باجتماعاتنا السرية أحد سوى الله وأسراب العصافير
المتطايرة بين تلك البساتين ، فسلمى كانت تجيء بمركبتها الى
المكان المدعو بمحديقة الباشا ثم تسير الهويناء على الممرات المنفردة
حق تبلغ المعبد الصغير فتدخله مستندة إلى مظلتها وعلى وجهها
لوائح الأمن والطمانينة فتجدني منتظراً مترقباً مشتاقاً بكل ما
في الشوق من الجوع والعطش .

ولم تخف قط عين الرقيب ولا شعرنا بوخز الضمير ، لأن
النفس اذا تطهرت بالنار واغتسلت بالدموع تترفع عما يدعوه
الناس عيباً وعاراً وتتحرق من عبودية الشرائع والنواميس التي
سنتها التقاليد لعواطف القلب البشري وتقف برأس مرفوع
أمام عروش الآلهة .

ان الجامعة البشرية قد استسلمت سبعين قرناً الى الشرائع
الفاصلة فلم تعد تقادراً على إدراك معاني النواميس العلوية
الأولية الخالدة . وقد تعودت بصيرة الانسان النظر الى ضوء

الشموع الضئيلة فلم تعد تستطيع ان تحرق الى نور الشمس .
لقد توارثت الأجيال الأمراض والماهات النفسية بعضها عن
بعض حتى أصبحت عمومية ، بل صارت من الصفات الملازمة
للإنسان فلم يعد الناس ينظرون اليها كماهات وأمراض بل
يعتبرونها كخلال طبيعية نبيلة أنزلها الله على آدم ، فإذا ما
ظهر بيتهم فرد خال منها ظنوه ناقصاً محروماً من الكمالات
الروحية .

أما الذين سيعيبون سلمى كرامه محاولين تلويث اسمها
لأنها كانت تترك منزل زوجها الشرعي لتختلي برجل آخر
فهم من السقاء الضمفاء الذين يحسبون الأصحاء مجرمين وكبار
النفوس متمردين . بل هم كالخشرات التي تدب في الظلمة
وتخشى الخروج إلى نور النهار كيلا تدوسها أقدام العابرين .

ان السجين المظلوم الذي يستطيع ان يهدم جدران سجنه
ولا يفعل يكون جباناً . وسلمى كرامه كانت سجينه مظلومة
ولم تستطع الانعتاق ، فهل تلام لأنها كانت تنظر من وراء
نافذة السجن الى الحقول الخضراء والفضاء الواسع ؟ هل
يحسبها الناس خائنة لأنها كانت تجيء من منزل منصور بك
غالب لتجلس بجانبه بين عشقوت المقدسة والجبار
المصلوب ؟ ليقول الناس ما شاؤوا ، فسلمى قد اجتازت
المستنقعات التي تغمر أرواحهم وبلغت ذلك العالم الذي لا
يلغوه عواء الذئاب وفحيح الأفاعي . وليقل الناس ما أرادوا

عفي ، فالنفس التي شاهدت وجه الموت لا تذرهما وجوه
الصوص ، والجندي الذي رأى السيوف محتبكة فوق رأسه
وسواقى الدماء تجري تحت قدميه لا يحفل بالحجارة التي يرشقه
بها صبيان الأزقة .

التضحية



ففي يوم من اواخر حزيران وقد ثقلت وطأة الحر في
السواحل وطلب الناس أعالي الجبال ، سرت كمادتي نحو ذلك
المعبد واعدت نفسي بلقاء سلمى كرامه حاملا بيدي كتاباً
صغيراً من الموشحات الاندلسية التي كانت في ذلك العهد ولم
تزل الى الآن تستميل روحي .

بلغت المعبد عند الاصيل فجلست ارقب الطريق المناسبة
بين اشجار الليمون والصفصاف ، وانظر من وقت الى آخر
الى وجه كتلي هامساً في مسامع الاثير ابيات تلك الموشحات
التي تستهوي القلب برشاقة تراكيبيها وورنة اوزانها ، وتعيد
الى النفس ذكرى أمجاد الملوك والشعراء والفرسان الذين ودعوا
غرناطة وقرطبة واشبيلية تاركين في قصورها ومعاهدها
وحدائقها كل ما في ارواحهم من الآمال والميول ثم تواروا
وراء حجب الدهور والدمع في اجفانهم والحسرة في أكبادهم.

وبعد ساعة النفث فاذا بسلمى تيس بقدها النحيل بين
الاشجار المتبكة وتقرب نحوي مستندة الى مظلتها كأنها

تحمل كل ما في العالم من الهموم والمتاعب . ولما بلغت باب الهيكل وجلست بقربي نظرت الى عينيها الكبيرتين فرأيت فيها معاني وأمراراً جديدة غريبة توحى التحذر والانتباه وتثير حب الاستطلاع والاستقصاء .

وشعرت سلمى بما يحول في خاطري فلم تشأ أن يطول الصراع بين ظنوني وهواجسي ، فوضعت يدها على شعري . وقالت : اقترب مني ، اقترب مني يا حبيبي ، اقترب ودعني أزود نفسي منك ، فقد دنت الساعة التي تفرقنا الى الأبد . فصرخت قائلاً : ماذا تمنين يا سلمى ، وأية قوة تستطيع أن تفرقنا الى الأبد ؟

فأجابت : ان القوة العمياء التي فرقتنا بالأمر ستفرقنا اليوم . القوة الخرساء التي تتخذ الشرائع البشرية ترجماناً عنها قد بنت بأيدي عبيد الحياة حاجزاً منيعاً بيني وبينك . القوة التي أوجدت الشياطين وأقامتهم أولياء على أرواح الناس قد حتمت علي ان لا أخرج من ذلك المنزل المبني من العظام والجحيم .

فسألته قائلاً : هل علم زوجك باجتماعاتنا فصرت تخشين غضبه وانتقامه ؟

فأجابت إن زوجي لا يحفل بي ولا يدري كيف أصرف أيامي ، فهو مشغول عني بأرلئك الصبايا المسكينات اللواتي تهدمن الفاقة الى أسواق النخاسين فيمتطرن ويكتحلن ليمن أجسادهن بالخبز المعجون بالدماء والدموع .

فقلت : إذا ماذا يصدك عن المجيء الى هذا المعبد والجلوس بجانبى أمام هيبة الله وأشباح الأجيال ؟ هل فلتت النظر الى خفايا نفسي فطلبت روحك الوداع والتفريق ؟

فأجابت والدمع يرود اجفانها : لا يا حبيبي . إن روحي لم تطلب فراقك لأنك شطرها ، ولا ملت عيناي النظر اليك لأنك نورها . ولكن إذا كان القضاء قد حكم علي أن أسير على عقبات الحياة مثقلة بالقيود وبالسلاسل . فهل أرضى أن يكون نصيبك من القضاء مثل نصيبي ؟

فقلت : تكلمي يا سلمى واخبريني عن كل شيء ولا تتركيني ضائعاً بين هذه المعميات .

فأجابت : لا أقدر أن أقول كل شيء ، لأن اللسان الذي أخرسته الأوجاع لا يتكلم ، والشفاه التي ختم عليها اليأس لا تتحرك ، وكل ما أقدر أن أقوله لك هو أنني أخاف عليك من الوقوع في شرك الذين نصبوا لي الحبائل واصطادوني .

فقلت : ماذا تعنين يا سلمى ومن هم الذين تخافين عليّ منهم ؟

فسترت وجهها بيديها وتأوهت ملتناعة ثم قالت مترددة : ان المطران بولس غالب قد صار يعلم بأنني أخرج مرة في الشهر من القبر الذي وضعني فيه .

فقلت : وهل علم المطران بأنك تلتقين بي في هذا المكان ؟
فأجابت : لو علم بذلك لما رأيته الآن جالسة بقربك ،

ولكن الشكوك تخامره والظنون تتلاعب بأفكاره ، وقد بث عليّ العيون لترقبني وأوعز الى خدمه ليتجسسوا حركاتي حق صرت أشعر بأن للمنزل الذي اسكنه والطرق التي أسير عليها نواظر تحدق بي وأصابع تشير إليّ وآذاناً تسمع همس أفكاري .

وأطرقت هنية ثم زادت والدمع ينسكب على وجنتيها : أنا لا أخاف على نفسي من المطران لأن الغريق لا يخشى البلل ، ولكنني أخاف عليك وأنت حر كنور الشمس أنت تقع مثلي في أشراكه فيقبض عليك بأظافره . وينهشك بأنيابه أنا لا أخاف من الدهر لأنه أفرغ جميع سهامه في صدري ، ولكنني أخاف عليك وأنت في ربيع العمر أن تلسع الأفعى قدميك وتوقفك عن المسير نحو قمة الجبل حيث ينتظرك المستقبل بأفراحه وأمجاده .

فقلت : ان من لا تلمسه أفاعي الأيام وتنهشه ذئاب الليالي يظل مغروراً بالأيام والليالي . ولكن اسمعي يا سلمي ، اسمعيني جيداً ، أليس أمامنا غير الفراق لتتقي صغارة الناس وشروهم ؟ هل سدت أمامنا سبل الحب والحياة والحرية فلم يبق غير الاستسلام الى مشيئة عبيد الموت ؟ فأجابت بلهجة يساورها القنوط والحسرة : لم يبق أمامنا غير الوداع والتفريق .

فأخذت يدها وقد تمردت روحي في داخلي وتبدد الدخان عن شعلة فتوتي ، فقلت متهيجاً : قد استسلمنا طويلاً الى أهواء

الناس يا سلمى ... منذ تلك الساعة التي جمعتنا حتى الآن ونحن ننقاد الى العبيان ونركع أمام أصنامهم . منذ عرفتكم ونحن في يد المطران بولس غالب مثل كرتين يلعب بنا كيفما أراد ويقذفنا حيثما شاء ، فهل نبقى خاضعين لديه محدقين الى ظلمة نفسه حتى يلوكننا القبر وتبتلعنا الأرض ؟ هل وهبنا الله نسمة الحياة لنضعها تحت أقدام الموت ، وأعطانا الحرية لنجعلها ظلاً للاستعباد ؟ ان من يخذل نفسه بيده يكون كافراً بالسما التي اوقدتها . ومن يصبر على الضيم ولا يتمرد على الظلم يكون حليف البطل على الحق وشريك السفاحين بقتل الابرياء . قد احببتك يا سلمى واحببتني ، والحب كنز ثمين يودعه الله النفوس الكبيرة الحساسة ، فهل نرمي بكثرتنا الى حظائر الخنازير لتبعثره بأنوفها وتذريه بأرجلها ؟ امامنا العالم مسرحاً واسعاً مملوءاً بالمحاسن والفرائب ، فلماذا نسكن في هذا النفق الضيق الذي حفره المطران وأعوانه ؟ امامنا الحياة وبما في الحياة من الحرية وما في الحرية من الغبطة والسعادة ، فلماذا لا نخلع النير الثقيل عن عاتقينا ونكسر القيود الموثقة بأرجلنا ونسير الى حيث الراحة والطمانينة ؟ قومي يا سلمى نذهب من هذا المعبد الصغير الى هيكل الله الاعظم . هلمي نرحل من هذه البلاد وما فيها من العبودية والغباوة الى بلاد بعيدة لا تقاطها أيدي اللصوص ولا يبلغها لهسات الأبالسة . تعالي نسرع الى الشاطئ مستترين بوشاح الليل فنعتلي سفينة نقلنا الى ما وراء البحار وهناك نعيش حياة جديدة مكتتفة

بالطهر والتفاهم ، فلا تنفثنا الثعابين بأنفاسها ، ولا تدوسنا الضواري بأقدامها . لا تترددي يا سلمى ، فهذه الدقائق اثنى من تيجان الملوك واسمى من سرائر الملائكة . قومي تتبع عمود النور فيقودنا من هذه الصحراء القاحلة الى حقول تنبت الأزاهر والرياحين .

فهمت رأسها وقد شخصت عيناها بشيء غير منظور في فضاء ذلك الهيكل ، وسالت على شفيتها ابتسامة محزنة تعلن ما في داخل نفسها من الشدة والألم ، ثم قالت بهدوء : لا ، لا يا حبيبي ان السماء قد وضعت في يدي كاساً مفعمة بالحل والعلم وقد تجرعتها صرفاً ولم يبق فيها غير قطرات قليلة سوف أشربها متجلدة لأرى ما في قعر الكأس من الأسرار والخفايا . أما تلك الحياة الجديدة العلوية المكتنفة بالهبة والراحة والطمأنينة فأنا لا استحقها ولا أقوى على احتمال أفراحها وملذاتها ، لأن الطائر المكسور الجناحين يدب متنقلاً بين الصخور ولكنه لا يستطيع ان يسبح علقاً في الفضاء ، والعيون الرمضاء تحدق الى الأشياء الضئيلة ولكنهن لا تقوى على النظر الى الأنوار الساطعة ، فلا تحدثني عن السعادة لان ذكرها يؤلمني كالتمعاسة ، ولا تصور لي الهناء لأن ظله يخيفني كالشفاء ... ولكن انظر إليّ لأريك الشعلة المقدسة التي أوقدتها السماء بين رماد صيدري .. أنت تعلم بأنني أحبك محبة الأم وحيدها ، وهي المحبة التي علمتني أن أحبك حتى ومن

الأجنحة المتكسرة (٧)

نفسي . هي الحبة المطهرة بالنار التي توقفي الآن عن اتباعك الى أفاصي الأرض وتجعلني أميت عواطفي وميولي لكي تحيا أنت حراً نزيهاً وتظل في مأمن من لوم الناس وتقولاهم الفاسدة . ان الحبة المحدودة تطلب امتلاك المحبوز ، أما الحبة غير المتناهية فلا تطلب غير ذاتها . الحبة التي تحب بين لحظة الشباب وغفلته تستكفي باللقاء وقنع بالوصل وتتمو بالقبل والعناق ، أما الحبة التي تولد في احضان اللانهاية وتهبط مع أسرار الليل فلا تقنع بغير الأبدية ولا تستكفي بغير الخلود ولا تقف متهبية أمام شيء سوى الالهية ... عندما عرفت بالأمس ان المطران بولس غالب يريد أن يمنعي عن الخروج من منزل ابن اخيه ويسلبني اللذة الوحيدة التي عرفتها منذ تزوجت ، وقفت أمام نافذة غرفتي ونظرت نحو البحر مفكرة بما وراءه من البلاد الواسعة والحرية المعنوية والاستقلال الشخصي ، وتخيلت نفسي عائشة بقربك ، محاطة بأخيلة روحك مغمورة بانعطافك ، ولكن هذه الاحلام التي تنير صدور النساء المظلومات وتجعلن يتمردن على التقاليد الباطلة ليعشن في ظل الحق والحرية ، لم تمر في خاطري حتى جعلتني استصغر نفسي واستضعفها وأرى محبتنا واهية محدودة لا تستطيع الوقوف أمام وجه الشمس . فبكيت بكاء ملك أصاع ملكه وغني فقد كنوزه ، ولكنني ما لبثت أن رأيت وجهك من خلال دموعي وأبصرت عينيك محدقتين الي ،

فتذكرت ما قلته لي مرة : هلمي يا سلمى نقف أمام
الأعداء متلقين شفار السيوف بصدورنا ، فان صرعنا نمت
كالشهداء وان تغلبنا نعش كالانطال . لأن عذاب النفس بشاتها
امام المصاعب والمتاعب هو أشرف من تقهرها الى حيث الأمن
والطمأنينة ... هذه الكلمات قلتها لي يا حبيبي عندما كانت
أجنحة الموت ترفرف حول مضجع والدي ، وقد ذكرتها
بالأمس وقد كانت أجنحة اليأس تصفق حول رأسي ، فتقويت
وتشجعت وشعرت وانا في ظلمة السجن بنوع من الحرية
النفسية التي تستهون الشدائد وتستصغر الأحزان ، ورأيت
حبنا عميقا كالبحر عاليا كالنجوم متسما كالفضاء . وقد جئت
اليوم اليك وفي نفسي المتوجعة المنهكة قوة جديدة وهي المقدرة
على تضحية الأمر العظيم للحصول على أمر أعظم ، تضحية
سعادتي بقربك لكي تبقى أنت شريفا بعرف الناس بعيداً عن
غدرهم واضطهادهم ... كنت اجيء بالأمس الى هذا المكان
والقيود الثقيلة تنسل قدمي الضعيفتين ، اما اليوم فقد جئت
شاعرة بعزم يهزأ بثقل القيود ويستقصر الطريق . كنت اجيء
مثل طيف طارق خائف ، اما اليوم فقد جئت مثل امرأة
حية تشعر بوجوب التضحية وتعرف قيمة الأوجاع وتريد ان
تحمي من تحبه من الناس الأغنياء ومن نفسها الجائعة . كنت
أجلس حذاءك مثل ظل مرتجف وقد أتيت اليوم لأريك حقيقي
أمام عشاروت المقدسة ويسوع المصابوب . انا شجرة نابتة في

الظل وقد مددت اغصاني اليوم لكي ترقع ساعة في نور
النهار ... قد جئت لأودعك يا حبيبي فليكن وداعنا عظيماً
وهائلاً مثل حبنا ، ليكن وداعنا كالنار التي تصهر الذهب
لتجعله اشد لمعاناً .

ولم تترك لي سلمي مجالاً للكلام والاحتجاج بل نظرت الي
وقد برقت عينها فأحاطت أشعتها بوجداني واتشحت ملامح
وجهها بنقاب من الهيبة والجلال فبانت كمليكاة توحى الصمت
والتخشع . ثم ارتمت على صدري بانعطاف كلي ما عهدته فيها
قبل تلك الساعة ، وطوقت عنقي بزندها الأملس وقبلت
شفتي قبلة طويلة عميقة محرقة أيقظت الحياة في جسدي ،
وأفارت الأسرار الخفية في نفسي ، وجعلت الذات الوضعية
التي أدغوها « أنا » تتمرد على العالم بأسره لتخضع صامتة
أمام الناموس العلوي الذي اتخذ صدر سلمي هيكلًا ونفسها
مذبحاً .

* * *

ولما غربت الشمس واهبت أشعتها الأخيرة عن تلك
الحدائق والبساتين انتفضت سلمي ووقفت في وسط الهيكل .
ونظرت طويلاً إلى جدرانها وزواياها كأنها تريد أن تسكب
نور عينها على رسومه ورموزه ، ثم تقدمت قليلاً وجئت
خاشعة أمام صورة يسوع المصلوب وقبلت قدميه المكلومتين
مرات متوالية ثم همست قائلة :

ها قد اخترت صليبك يا يسوع الناصري وتركت مسرات
عشثروت وأفراحها . قد كللت رأسي بالأشواك بدلاً من الفار ،
واغتسلت بدمي ودموعي بدلاً من المطور والطيوب ، وتجرعت
الخل والملح بالكأس التي صنعت للخمر والكور ، فاقبلني بين
تابعيك الأقوياء بضعفهم وسيروني نحو الجلجلة برفقة مختاريك
المستكفين بأوجاعهم المنبوطين على كآبة قلوبهم .

ثم انتصبت والتفتت نحوي قائلة :

سأعود الآن فرحة الى الكهف المظلم حيث تتراكمض
الأشباح الخفيفة ، فلا تشفق عليّ يا حبيبي ولا تعزن من أجلي ،
لأن النفس التي ترى ظل الله مرة لا تخشى بعد ذلك أشباح
الأبالسة ، والعين التي تكتحل بلمعة واحدة من الملائكة لا
تغمضها أوجاع هذا العالم .

وخرجت سلمى من ذاك المعبد ملتفة بملابسها الحريرية
وتركتني حائراً ضائعاً مفكراً مجذوباً إلى مسارح الرؤيا حيث
تجلس الآلهة على العروش وتدون الملائكة أعمال البشر وتتلو
الأرواح مأساة الحياة وتترنم عرائس الخيال بأناشيد الحب
والحزن والخلود .

ولما صحت من هذه السكرية ، وكان الليل قد غمر
الوجود بأمواجه القاتمة ، وجدتنني هائماً بين تلك البساتين
مسترجعاً إلى حافظتي صدى كل كلمة لفظتها سلمى ، معيداً
الى نفسي حركاتها وسكناتها وملامح وجهها وملامس

يديها ، حق اذا ما اتضحت لي حقيقة الوداع وما سيحييه بعده من ألم الوحشة ومرارة الشوق وجدت فكري وتراخت خيوط قلبي وعلمت لأول مرة ان الانسان وإن ولد حراً يظل عبداً لقساوة الشرائع التي سننها آباؤه وأجداده ، وان القضاء الذي تتوهمه مرأً علياً هو استسلام اليوم الى ما تي الأمس ، وخضوع الغد الى ميول اليوم . وكً مرة فكرت منذ تلك الليلة الى هذا ، الساعة بالنواميس النفسية التي جعلت سلمى تختار الموت بدلاً من الحياة ، وكً مرة وضعت نبالة التضحية بجانب سعادة المتمردين لأرى أيها أجل وأجل ، ولكنني الآن لم أفهم سوى حقيقة واحدة وهي ان الاخلاص يجعل جميع الأعمال حسنة وشريفة ، وسلمى كرامه كانت الاخلاص متأنساً وصحة الاعتقاد متجسدة .

المنقذ



ومرت خمسة أعوام . على زواج سلمى ولم ترزق ولداً
ليوجد بكيانه العلاقة الروحية بينها وبين معلمها ويقرب
بإتسامته نفسها المتنافرتين مثلما يجمع الفجر أواخر الليل
وأوائل النهار .

والمرأة العاقر مكروهة في كل مكان لأن الأفانية تصور
لأكثر الرجال دوام الحياة في أجساد الأبناء فيطلبون النسل
ليظلوا خالدين على الأرض .

ان الرجل المادي ينظر الى زوجته العاقر بالعين التي يرى
بها الانتحار البطيء فيمقتها ويهجرها ويطلب سحتها كأنها
عدو غدار يريد الفتك به . ومنصور بك غالب كان مادياً
كالتراب وقاسياً كالفلواز وطامعاً كالقبرة ، وكانت رغبته بان
يرث اسمه وسؤدده تكرمه بسلمى المسكينة وتحول محاسنها
في عيذه الى عيوب جهنمية .

ان الشجرة التي تنبت في الكهف لا تعطى ثمراً ، وسلمى
كرامه كانت في ظل الحياة فلم تثمر اطفالاً . ان الببلل لا
يحرك عشاً في القفص كيلا يورث العبودية لفراخه ، وسلمى

كرامه كانت سجينه الشقاء فلم تقسم السماء حياتها الى أسيرين.
إن أزاهر الأودية هي أطفال يلدها انعطاف الشمس وشغف
الطبيعة ، وأطفال البشر أزاهر يلدها الحب والحنو ، فسلى
كرامه لم تشعر قط بأنفاس الحنو وملامس الانعطاف في ذلك
المنزل الفخم القائم على شاطئ البحر في رأس بيروت ،
ولكنها كانت تصلي في سكينه الليالي ضارعة أمام السماء
لتبعث إليها بطفل يحفف بأصابعه الوردية دموعها ويزيل بنور
عينيه خيال الموت عن قلبها .

وقد صلت سلى متوجهة حتى ملأت الفضاء صلاة
وابتهالاً ، وتضرعت مستغيثة حتى بدد صراخها الغيوم ،
فسمعت السماء نداءها وبثت في أحشائها نعمة مختبرة بالحلاوة
والعذوبة وأعدتها بعد خمسة أعوام من زواجها لتصيرها أمًا
وتحمو ذلها وعارها .

الشجرة النابتة في الكهف قد أزهرت لتثمر .
البلبل المسجون في القفص قد هم ليحوك عشًا من ريش
جناحيه .

القيثارة التي طرحت تحت الاقدام قد وضعت في مهب
نسيم المشرق ليحرك بأمواجه ما بقي من أوتارها .
سلى كرامه المسكينة قد مدت ذراعيها المكبلتين
بالسلاسل لتقتبل موهبة السماء .

وليس بين أفراح الحياة ما يضارع فرح المرأة العاقر عندما
تهبها النواميس الأزلية لتصيرها أمًا . كل ما في يقظة الربيع

من الجمال ، وكل ما في مجيء الفجر من المسرة ، يجتمع بين أضلع المرأة التي حرّمها الله ثم أعطاها .

لا يوجد نور أشد سطوعاً وأكثر لمعاناً من الأشعة التي يبعثها الجنين السجين في ظلمة الأحشاء .

وكان نيسان قد جاء متنقلاً بين الروابي والمنحدرات عندما تمت أيام سلمى لتلد بكرها ، وكان الطبيعة قد وافقتها وعاهدتها فأخذت تضع حمل أزامرها وتلف بأقطة الحرارة أطفال الأعشاب والرياحين .

مضت شهور الانتظار وسلمى تترقب الخلاص مثلما يترقب المسافر طلوع كوكب الصباح ، وتتنظر الى المستقبل من وراء دموعها فتراه مشعشعاً ، وقد طالسا ظهرت الأشياء القائمة متلعة من خلال الدموع .

ففي ليلة وقد طافت أشباح الظلام بين تلك المنازل في رأس بيروت ، انطرحت سلمى على مضجع الخاض والأوجاع ، فانتصب الموت والحياة يتصارعان بجانب فراشها ، ووقف الطبيب والقابلة ليقدما الى هذا العالم ضيقاً جديداً ، وسكنت حركة عابري الطريق وانخفضت نغمة أمواج البحر ولم يعد يسمع في ذلك الحي سوى صراخ هائل يتصاعد من نوافذ منزل منصور بك غالب .. صراخ انفصال الحياة عن الحياة .. صراخ محبة البقاء في فضاء اللانبيء والعدم ... صراخ قوة الانسان المحدودة امام سكينه القوي غسيرة المتناهية .. صراخ سلمى الضميمة المنطرحة تحت أقدام

جبارين : الموت والحياة .

عندما لاح الفجر ولدت سلمى ابناً ، ولما سمعت اهلاله
فتحت عينيها المغلفتين بالأم ونظرت حواليتها فرأت الأوجه
متهللة في جوافب تلك الغرفة ... ولما نظرت ثانية رأت
الحياة والموت ما زالاً يتصارعان بقرب مضجعا ، فعادت
وأغمضت هينها وصرخت لأول مرة : يا ولدي .

ولفت القابلة الطفل بالأقمطة الحريرية ووضعت حذاء أمه ؛
أما الطبيب فظل ينظر بعينين حزينتين نحو سلمى ويهز رأسه
صامتاً بين الدقيقة والأخرى .

وأيقظت نغمة الفرح بعض الجيران فجاءوا بملابس النوم
ليهنثوا الوالد بولده ، اما الطبيب فبقي ينظر بعينين كئيبتين
نحو الوالدة وطفلها .

وأسرع الخدم نحو منصور بك ليبشروه بقدوم وارثه ويأثروا
أيديهم من عطاياه ، اما الطبيب فلبث واقفاً ينظر بعينين
يائستين الى سلمى وابنها .

ولما طلعت الشمس قربت سلمى ولدها من ثديها ففتح
عينيه لأول مرة ونظر في عينيها واختلج وأغمضها لآخر
مرة ، فشدنا الطبيب وأخذه من بين ذراعيها وانسكبت على
وحنثيه دمعتان كبيرتان ثم همس في سره قائلاً : هو زائر
رائع ! .

مات الطفل زسكان الحي يفرحون مع الوالد في القاعة
الكبرى ويشربون ثجبه ليعيش طويلاً ، وسلمى المسكينة تحديقاً الى

الطبيب وتصرخ قائلة: أعطني ولدي لأخذه ، ثم تحديق ثانية
فترى الموت والحياة يتصارعان بجانب سريرها .

مات الطفل وراثت الكؤوس تنمو وتتكاثر بين أيدي
الفرحين بمجيئه .

ولد مع الفجر ، ومات عند طلوع الشمس ، فأبي بشري
يستطيع أن يقيس الزمن ليخبرنا ما إذا كانت الساعة التي تمر
بين مجيء الفجر وطلوع الشمس هي أقصر من الدهر الذي يمر
بين ظهور الأمم وتوارثها ؟

ولد كالفكر ، ومات كالتنهيدة ، واختفى كالظل ، فأذاق
سلى كرامه طعم الأمومة ولكنه لم يبقَ ليسعدا ويزيل يد
الموت عن قلبها .

حياة قصيرة ابتدأت بنهاية الليل وانقضت بإبتداء النهار ،
فكانت مثل قطرة الندى التي تسكبها أجفان الظلام ثم تجففها
ملايس النور .

كلمة لفظتها النواميس الأزلية ، ثم ندمت عليها وأعادت
الى سكينه الأبدية ...

لؤلؤة قذفها المد الى الشاطئ . ثم جرفها الجزر الى
الأعماق : ...

زنبقة ما انبتت من أكلهم الحبسة حق انسحقت تحت
أقدام الموت ..

ضيف عزيز ترقبت سلى قدومه ولكنه ، ما حل حتى
ارتحل ، وما فتح مصراعي الباب حق اختفى .

جنين ما صار طفلاً حتى صار تراباً — وهذه حياة الانسان
بل حياة الشعوب ، بل حياة الشمس والأقمار والكواكب ..
وحولت سلمى عيلىها نحو الطبيب وتنهدت شوق جارج ثم
صرخت قائلة :

أعطني ابني لأضمه بذراعي .. أعطني ولدي لأرضعه ...
فنكس الطبيب رأسه وقال والغصات تخرسه :
قد مات طفلك يا سيدتي فتعجلتي وتصبري لكي
تعيشي بعده .

فصرخت سلمى بصوت هائل ، ثم سكنت هنيهة ، ثم
ابتسمت ابتسامة فرح ومسرة ، ثم تهلل وجهها كأنها عرفت
شيئاً لم تكن تعرفه وقالت يهدوء : أعطني جثة ولدي ...
قربه مني ميتاً .

فحمل الطبيب الطفل الميت ووضعه بين ذراعيها فضمته
الى صدرها وحولت وجهها نحو الحائط وقالت تخاطبه :
قد جئت لتأخذني يا ولدي . جئت لتدلني على الطريق
المؤدية الى الساحل . ها أنذا يا ولدي فسر أمامي لنذهب من
هذا الكهف المظلم .

وبعد دقيقة دخلت أشعة الشمس من بين ستائر النافذة
وانسكبت على جسدين هامدين منطرحين على مضجع تحفره
هيبة الأمومة وتظلمه أجنحة الموت .

فخرج الطبيب باكياً من تلك الغرفة ، ولما بلغ القاعة
الكبرى تبدلت تهاليل المهنئين بالصراخ والعيول ، أما

منصور بك غالب فلم يصرخ ولم يتنهد ولم يذرف دمعة ولم يفه
بكلمة بل لبث جامداً منتصباً كالصنم قابضاً بيمينه على كأس
الشراب .

* * *

في اليوم التالي كفنت سلمى بأثواب عرسها البيضاء ووضعت
في تابوت موسى بالحمل الناصع ، أما طفلها فكانت أكفانه
أقمطته وتابوته ذراعي أمه وقبره صدرها الهادي .
حملوا الجثتين في نعش واحد ومشوا ببطء متلف يشابه
طرقات القلوب في صدور المنازعين ، فسار المشيعون وسرت
بينهم وهم لا يعرفونني ولا يدرون ما بي .
بلغوا المقبرة فانتصب المطران بولس غالب يرتل ويمزم ،
ووقف الكهان حوله ينغمون ويسبحون وعلى وجوههم الكالحة
نقاب من الخلو والغفول .
ولما أنزلوا التابوت إلى أعماق الحفرة همس أحد الراقدين
قائلاً :

هذه أول مرة رأيت جسدين يضمهما تابوت واحد ...
وقال آخر :

كان طفلها قد جاء ليأخذها وينقذها من مظالم زوجها
وقساوته .

وقال آخر :

تأملوا بوجه منصور بك فهو ينظر الى الفضاء بعينين
زجاجيتين كأنه لم يفقد زوجته وطفله في يوم واحد .

وقال آخر :

غداً يزوجه عمه المطران ثانية من امرأة أخرى أوفر ثروة وأقوى جسماً .

وظل الكهان يرتلون ويسبحون حتى فرغ حفار القبور من ردم الحفرة فأخذ المشيعون إذ ذاك يقتربون واحداً واحداً من المطران وابن أخيه يصبرونها ويؤاسونها بمستعذبات الكلام ، أما أنا فبقيت واقفاً منفرداً وحدي وليس من يعزّيـني على مصيبي ، كأن سلمي وطفلي لم يكونا أقرب الناس إليّ .

عاد المشيعون وبقي حفار القبور منتصباً بجانب القبور الجديد ، وفي يده رفشه ومحفرة ، فدلوت منه وسألته قائلاً : أتذكر أين قبر فارس كرامه ؟

فنظر إليّ طويلاً ثم أشار نحو قبر سلمي وقال :

في هذه الحفرة قد مددت ابنته على صدره ، وعلى صدر ابنته قد مددت طفلها ، وفوق الجميع قد وضعت التراب بهذا الرفش .

فأجبتة : وفي هذه الحفرة أيضاً قد دفنت قلبي أيها الرجل ، فما أقوى ساعديك !

ولما توارى حفار القبور وراء أشجار السرو خانني الصبر والتجملد فارتيمت على قبر سلمي أبكيها وأرثيها .